

من منتقى المقريري
من
أخبار مصر لابن ميسر

obeikandi.com

سنة تسعين وأربعمائة

فيها كان بمصر غلاء وجوع

وفي صفر قدم على الأفضل الرسل من عند فخر الملك رضوان بن تش صاحب حلب وأنطاكية، وهو يبذل له الطاعة في إقامة خطبة المستعلي بالشام، فأجيب بالشكر والثناء، فخطب للمستعلي في يوم الجمعة سابع عشر رمضان، وكان الحامل لرضوان على ذلك أنه أراد أن يستعين بعساكر المصريين على أخذ دمشق من أخيه دقاق، فاتفق أن الأمير سكيان بن أرتق أنكر على رضوان ذلك فقطع خطبة المستعلي وأعاد الخطبة للعباسي، فكانت مدة الخطبة للمستعلي أربع جمع.

وفي شهر ربيع الأول ندب أمير الجيوش الأفضل عسكريا له عدة وافرة إلى ثغر صور، فمضى إليها وحاصرها حصارا عنيفا حتى أخذها بالسيف، ودخلها العسكر فقتل منها خلقا كثيرا وقبض على نائبيها وحمل إلى الأفضل فقتله، وسبب ذلك أنه كان نائبا عن الأفضل فعصى عليه.

وفيها كان ابتداء

خروج الإفرنج من بلاد قسطنطينية إلى بلاد المسلمين

وكان أول مابدأوا به أنطاكية فملكوها، ثم ملكوا البلاد الساحلية كلها.

وفي يوم عاشوراء تجمع العامة عند مشهد السيدة نفيسة وأعلنوا بسب الصحابة وهدموا قبور الصالحين التي هناك، فسير الأفضل إليهم وردهم عن ذلك، وأدب والي القاهرة، وهو ذخيرة الملك بن علوان، جماعة، وذخيرة الملك هذا هو صاحب المسجد بسوق الخيل تحت قلعة الجبل.

وفي محرم حرر الأفضل عيار الدينار وزاد فيه.

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

في شعبان خرج الأفضل بعساكر جمّة وسار إلى بيت المقدس، وكان به الأمير سكيان وإيلغازي ابنا أرتق في جماعة من أقاربها ورجالها وعساكر كثيرة من الأتراك، فراسلها الأفضل يلتمس منها تسليم بيت المقدس إليه بغير حرب، فلم يجيباه لذلك. فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانباً، فلم يجدا بدا من الإذعان إليه فسلماه إليه وخلع عليها وأطلقهما، وعاد في عساكره وقد ملك بيت المقدس، فدخل عسقلان، وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، فأخرجه وعطره وحمله في سفط إلى أجل دار بها وعمر المشهد، فلما تكامل حمل الرأس على صدره وسعى به ماشياً إلى أن أحله في مقره، وقيل أن المشهد (بعسقلان) بناه أمير الجيوش بدر الجمالي وكمله ابنه شاهنشاه الأفضل وكان حمل الرأس إلى القاهرة ووصله إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسةائة.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة

في رجب حاصر الفرنج البيت المقدس، وكانوا قد ملكوا الرملة قبل ذلك في ربيع الآخر، فخرج إليهم الأفضل بعساكره، فلما بلغ الفرنج خروجه جدوا في حصاره حتى ملكوه يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان، وهدموا المشاهد وقبر الخليل، عليه السلام، وقتلوا (أهل) البلد جميعهم إلا اليسير، وانحازت طائفة إلى محراب داود، عليه السلام، فسلموا المحراب في الثالث والعشرين بالأمان وأحرقوا المصاحف، وأخذوا من الصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات مالا ينحصر.

ووصل الأفضل عسقلان في الرابع عشر من شهر رمضان، وبعث رسلا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه، فأعادوا الجواب مع رسله، فلم يصل إليه الرسول إلا وهم في كثرة فهجموا على الأفضل وقتلوا من عساكره فانهزم بمن خف معه إلى داخل عسقلان، وحصل بأيدي الفرنج من الغنائم مالا يوصف وتعلق خلق كثير بشجر الجميز هناك، فأحرقوا أكثر الشجر، ونزل الفرنج على عسقلان وحاصروها فاتفق وقوع الخلف بينهم، فارتحلوا عنها، وسار الأفضل في البحر إلى القاهرة.

وفيها توفي ابو الحسن (علي بن الحسن) بن الحسين بن محمد الموصلبي الشافعي المعروف بالخلعي، المحدث المشهور، في يوم السبت ثامن عشر ذي الحجة، وإليه نسب مسجد الخلعي بالقرافة، وبه دفن، وكان محدثا مقرئا سمع على جماعة كثيرة، وجمع له الحافظ أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي عشرين جزءا سماها الخلعيات، وكانت ولادته في محرم سنة خمس وأربعمائة بمصر، وقبره أحد المزارات بقرب النقعة من القرافة، وولي جده قضاء فامية.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة

فيها قدم إلى مصر خلق كثير من البلاد الشامية فرارا من الفرنج والغلاء.

وعم جميع البلاد الوباء، ومات بمصر خلق كثير.

وفيها مات قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن رجا، وتولى مكانه أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة

في شعبان أخرج الأفضل عسكريا كثيفا للقاء الفرنج، فوصل إلى عسقلان في أول رمضان، فأقام فيها إلى ذي الحجة، فنهض إليه من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل، فكانت بينهما حروب كثيرة كسرت فيها ميمنة المسلمين وميسرتهم، وثبت سعد الدولة القواسمي مقدم العسكر في القلب، وقاتل حتى قتل، وتراجعت عساكر المسلمين فهزموا الفرنج إلى يافا وقتلوا منهم وأسروا كثيرا.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة

في ليلة السابع عشر من صفر توفي أبو القاسم أحمد المستعلي بالله الخليفة ومولده لعشر بقين من محرم سنة ثمان وستين وأربعمائة، ومدة خلافته سبع سنين وشهران ونقش خاتمه (الإمام المستعلي بالله).

وفي أيامه خرجت الفرنج على بلاد الساحل والشام فملكوه.

ولم يكن له سيرة تذكر فإن مدبر أموره الأفضل.

وترك من الولد ثلاثة هم أبو علي ونعت بالأمير، وجعفر، وعبد الصمد.

وقضاته أبو الحسن بن الكحال، ثم أعاد محمد بن عبد الحاكم المليجي، ثم أبو الطاهر محمد بن رجا، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي، ثم صرف بعد وفاة المستعلي في ربيع الأول منها، وذلك أن ابراهيم بن حمزة الشاهد كان يعاديه، فبلغ الأفضل أنه أحدث في مجلس الحكم فصرفه، وتولى بعده حسين بن يوسف بن أحمد الرصافي وصرفه، فولي بعده أبو النجم بن بدر الخوافي، ثم أبو الفضل نعمة بن بشير النابلسي المعروف بالجليس.

ويقال ان المستعلي قتل سرا وقيل أنه سم فمات.

وكان المستنصر عقد لست الملك ابنة بدر الجمالي على ابنه المستعلي فاتفق موت المستنصر وبدر في سنة واحدة، وكان بدر قد أكثر من شراء الجواهر الثمين فلما مات تفرقه أولاده بها.

ولما مات المستعلي أحضر الأفضل أبا علي، وبايعه بالخلافة، ونصبه مكان أبيه، ونعته بالأمير بأحكام الله، وعمره خمس سنين وشهر وأيام، وكتب ابن الصيرفي الكاتب السجل بانتقال المستعلي وولاية الأمر، وقرىء على رؤوس كافة الأجناد والأمراء.

سنة ست وتسعين وأربعمائة

في أول رمضان جرد الأفضل عسكريا وجعل عليه ابنه شرف المعالي، وسير الأسطول في البحر، وكان قد خرج في رجب سنة خمس وتسعين عسكر وعليه سعد الدولة القواسي فاجتمع العسكران بيازور والتقى مع عسكر الفرنج فهزموهم وحاصر شرف المعالي قصرا كان الأفشين قد بناه قريبا من الرملة وملكه قهرا وقتل من كان به من الفرنج، وسير تسعمائة أسيرا إلى مصر، فحضر في البحر عدة مراكب نجدة للفرنج وحاصروا عسقلان فرحل شرف المعالي من الرملة إلى عسقلان، فارتحل الفرنج عنها، وكتب الأفضل إلى شمس الملوك دقاق، صاحب دمشق، يستنجده على الفرنج، فاعتذر عن ذلك ولم يحضر.

سنة سبع وتسعين وأربعمائة

فيها حاصر بردويل ملك الفرنج، وصاحب القدس، ثغر عكا وملكه، فخرج عن أيدي المسلمين ولم يعد، وكان ثغر عكا بأيدي نواب صاحب مصر، وكان الوالي يومئذ زهر الدولة نبا بن الجيوشي ففر إلى دمشق وأكرمه

ظهير الدين أتابك وأحسن مثواه مكرمة للأفضل، ثم جهز إلى مصر فشكره الأفضل.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة

فيها جمع الأفضل جمعا كثيفا من العرب وأنفق فيهم أموالا جمة وجهزهم مع عساكره وعليهم ابنه شرف المعالي، وكتب لظهير الدين أتابك، صاحب دمشق، بمعاضدته فلم يتمكن من الحضور لانشغاله بمضايقة بصرى، فإن أرتاش بن تاج الدولة، صاحب بصرى، كان قد كاتب الفرنج يغيرهم بقتال المسلمين، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، ثم سير عسكرا لابن الأفضل نجدة له فاجتمعا بظاهر عسقلان وكان التقاؤهم بالفرنج في رابع عشر ذي الحجة فيما بين يافا وعسقلان، فحمل الفرنج على المسلمين فانكسروا وقتل والي عسقلان وأسر بعض المقدمين، وقتل كثير من الفريقين، ورجع وقد كانت الكرة لهم وعاد عسكر دمشق إلى بصرى، فكان القتل من الفريقين متقاربا.

وفيها مات كنز الدولة محمد في ثامن شعبان وقام مقامه أخوه فخر العرب هبة الله.

سنة تسع وتسعين وأربعمائة

في سادس عشرين جمادى الأولى قتل خلف بن ملاعب، صاحب أفامية بها، قتله قوم من الباطنية.

سنة خمسمائة

أهلت والخليفة ببغداد المستظهر بالله، ومدبر العراق السلطان غياث الدين محمد بن ملك شاه، والخليفة بمصر الأمر بأحكام الله أبو علي

المنصور بن المستعلي، وهو العاشر منهم، ومدبر مملكته القائم مقام السلطنة أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، والأمير ليس له حل ولا ربط سوى اسم الخلافة، وهو مقام الوزير والذي في مملكته ديار مصر وغزة وعسقلان وصور وطرابلس.

وفيهما بنى الأفضل دار الملك بشاطئ النيل على ساحل مصر، وفرغت في سنة إحدى وخمسة وسكنها وتفنن الشعراء في مدحها، وصارت هذه الدار دار متجر في أيام الكامل محمد، ثم عملت دار وكالة في أيام الظاهر بيبرس، وكانت دار الطاووس بستانا فكان الأفضل يتردد إليها وزخرف بها مجلسين ثم بنى بجوارها دارا سماها دار الملك، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرباع السلطانية فكانت تقبض إلى آخر وقت.

وأنهت زيادة النيل إلى سبعة عشر ذراعا وأربعة أصابع.

سنة إحدى وخمسة

ففيها جدد الأفضل ديوانا سماه ديوان التحقيق، واستخدم فيه أبا البركات يوحنا بن (أبي) الليث النصراني، وبقي فيه حتى قتل في سنة ثمان عشرة وخمسة، ولم يزل هذا الديوان حتى زالت الدولة فانقطع إلى أيام الكامل محمد، فأعاده في سنة أربع وعشرين وستة واستخدم فيه ابن كوجك اليهودي، ثم أبطله في سنة ست وعشرين وستة فلم يعد، إلا أنه تجدد أيام المعز أيك، أن صفى الدين عبد الله بن علي بن المغربي، استخدم مستوفيا على مقابلة الدواوين وهو نوع منه.

وفيهما نزل بردويل على ثغر صور، وكان النائب به سعد الملك كمشكين أحد مماليك الأفضل، وعمر بردويل حصنا مقابل حصن

صور على تل المعشوقة، وصانع سعد الملك بردويل على سبعة آلاف دينار حتى رحل عن البلد.

وفيها أحضر أهل فخر الدولة ابن عمار إلى مصر من طرابلس، ومعهم أمواله وذخائره، وسبب ذلك أن فخر الدولة لما طال عليه حصار الفرنج له خرج من طرابلس في سنة خمسمائة بتحف وهدايا إلى دمشق فشكا إلى ظهير الدين طغتكين أتاك ماناله من حصار الفرنج فأكرمه وقام بأمره إلى أن أتفقا على المسير لبغداد ليستنصرا بالسلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، فسارا بالهدايا، ثم بدا لطغتكين فرجع وكان قد بلغه أن السلطان غياث الدين يريد قصده لينزع منه ملك الشام، وسار فخر الملك بن عمار واجتمع بالسلطان وشكا إليه أمره فشق عليه عود طغتكين، وحلف أنه لم يكن عنده خبر مما نقل إليه، وعاد فخر الملك إلى دمشق وقد استوثق من السلطان أن يمدّه بالعساكر نجدة له، فبينما هو كذلك إذ نافق أبو المناقب ابن عمار على ابن عمه فخر الملك ونادى بشعار الأفضل، وسير إليه أن يحضر لتسليم طرابلس، فسير إليه الأفضل الأمير شرف الدولة ابن أبي الطيب، فلما وصلها نقل حريم فخر الدولة ابن عمار وأولاده وأمواله وذخائره إلى مصر، فاضطرب لذلك فخر الدولة وازداد ألمه وسير السلطان غياث الدين طائفة من عسكره وأمر مقدمهم بقصد الموصل وحصار جاولي، فنزل عليها وجرى بينه وبين عسكر الموصل.

ولم نجد في النسخة ما يتم المعنى، ولانسخة مثلها تقابل بها، فكتبنا ما وجدناه على التوالي كذا على هذا المنوال .

وأقام الخليفة في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر، ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصر، فوجد له من الذخائر النفيسة مالا يحصى.

فوجد له ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتان وخمسون ألف دينار، وخمسون أردبا دراهم ورق، وثلاثون راحلة من الذهب العراقي المغزول، برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير ذهب كل مسامير وزنه مائتا مثقال، عليها العائمات المختلفة الألوان وتسعمائة ثوب ديباج، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتيس برسم كسوة بدنه، ولعبه عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الرائحة ومن الطيب والنحاس والآلات مالا يحصيه عدد، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه وتناجه أربعين ألف دينار في السنة، ودواة يكتب منها مرصعة بالجوهر قوم جواهرها بإثني عشر ألف دينار، وخمسمائة ألف مجلد من الكتب.

وكان سبب قتله، أنه قبض على رجل يعرف بالبديع، من الباطنية، وكان قد نفى قديما من مصر، ثم أعيد بشفاعة وقعت فيه، فصار له أتباع، وهم الأفضل بنفيه إلى اليمن إلى الحرة بنت الصليحي، فإن هذا المذهب كان عندها وفي بلادها ظاهرا، فحضر عشرة من الباطنية وأرادوا أن يكونوا معه في الاعتقال، وتتابع معهم جماعة، فقبض عليهم الأفضل وهم نيف وعشرون وقتلهم جميعا، وكثر تحرسه من الباطنية في ركوبه وخروجه.

فلما كان قبل عيد الفطر بيوم خرج من داره، دار الملك بمصر، إلى القاهرة لإخراج العدد والتجمل وقصب الفضة برسم العيد على العادة، فلما انقضى عمله وعاد إلى مصر وثب عليه رجالان من حانوت دقاق في طريقه وقد شهرا سكاكينهما، وكان هو قدام الناس والجند متفرقون عنه (في) عوده لكثرة من حوله فحين رأهم من بين يديه من الركابية بادروا إليهما وقتلوهما، وخف من حوله ودهشوا لما رأوا من الإقدام عليه فوثب رجل خياط، ذكر أنه من القاهرة، من خلفه فصاح الأفضل حين رآه

أقبل إليه وقال: إلى أين؟ فقال: إليك وشتمه وبادره فقبض على أطواقه وسقطت عمامته وضربه ضربات وقع منها، فارتج الناس ووثبوا عليه فقتلوه، وحمل الأفضل إلى داره وبه رمق وقد اثختته الجراح، فلما وصل إلى داره بعث ابن البطائحي، وزيره المستولي على أموره، إلى الخليفة الأمر ليحضر، وكان الناس قد انزعجوا انزعاجا شديدا وهم بعض المقدمين أن يخرج بعض أولاد الأفضل ويجعله مكان أبيه، وكان الأفضل قد حبس سائر أولاده في دورهم ومنعهم التصرف فلم يكن يظهر منهم سوى أبي علي فإنه كان يركب، فخرج ابن البطائحي للناس، وقد اجتمعوا بدار الملك وأظهر أنه ركب ليسكن الناس بالقاهرة، وصار إلى الأمر فبادر للوقت وحضر بنفسه إلى دار الأفضل وختم الدار وبيت الأموال والخزائن والصناديق وسائر ما فيها وعاد إلى القاهرة، فلما أصبح صلى بالناس صلاة العيد الداعي، والأفضل في داره ميتا، فلما كان بعد الصلاة غسل ودفن عند أبيه ونفذت المكاتبات إلى أعمال مصر بتطيب قلوب الناس وإعلامهم الحال.

وأخذ الأمر في نقل ما بدار الأفضل إلى القصر، وهو يرتب الأمر فيما يحمل بنفسه هو وأصحابه، واستمر ذلك مدة شهرين وأياما، والأموال تحمل على جمال وبغال إلى القصر، والأمر يطلع إلى القصر ويعود كل غداة ويقوم حتى يرتفع النهار، ويقرر ما يفعل ويرتب ما يحمل.

وذكر متولي الخزانة بالقصر أن ما وجد في دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، وسبعمائة طبق فضة وذهب، ومن الآلات كالأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادي والقطع من الذهب والفضة المختلفة الأجناس مالا يحصى كثره، ومن براني الصيني الكبار المملوءة بالجواهر التي بعضها منظوم كالسبح وبعضها منشور، شيء كثير.

وكان الأفضل، في أوقات الشرب، يصف في مجلسه صواني الذهب وفيها البراني المملوءة بالجواهر، فإذا أحب فرغت البرنية في الصينية فيكون ملؤها، ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقي وشرب عمل بتنيس ودمياط على كل صندوق شرح مافيه وجنسه، وخزانة الطيب مملوءة بالأسفاط من العود وغيره مكتوب عليها أوزانها وأجناسها، وبراني المسك وبراني الكافور ومن العنبر مالا يحصى.

وكان له مجلس يجلس فيه للشرب، فيه صور ثمان جوارى متقابلات، أربع منهن بيض من كافور، وأربع سود من عنبر قيام في المجلس عليهن أفخر الثياب وأتمن الحلي وبأيديهن أحسن الجواهر، فإذا دخل من باب المجلس ووطىء العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائلات.

ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارح والمخاد والمساند الديباج والديبقي الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها، أربع حجر كل حجرة مملوءة من هذا الجنس.

ووجد له عدة صناديق ملو خزانة بها أحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال، وثمانائة جارية منها حظايا له خمسون جارية لكل واحدة منهن حجرة، وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات الديباج والذهب والفضة وغيره من كل صنف.

قال الخازن: هذا ما حضرني حفظه (مما) في داره، وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله والجباة وضمأن النواحي من المال وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك مما لا يحصى.

وحمل من داره أربعة آلاف بساط وستور حمل طنافس، وخمسة قطع
بلور كبار وصغار، وخمسة قطع محكم برسم النقل، وألف عدل من
متاع اليمن والإسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب، يعني سرج.

وكان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة
تجاوز ماسمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر في زمانه
ولا قسط عليه، ولما حصر الاسكندرية كان بها يهودي يباليغ في سب
الأفضل وشتمه ولعنه، فلما دخلها الأفضل قبض عليه وأراد قتله وقد
عدد عليه ذنوبه فقال: إن معي خمسة آلاف دينار خذها مني واعتقني
واعف عني، فقال: والله لولا خشية ان يقال قتله حتى يأخذ ماله
لقتلتك وعفا عنه، ولم يأخذ منه شيئا، و(كان) إذا غضب على أحد
اعتقله، فلما مات أطلق من سجنه عشرة آلاف إنسان، فإنه كان إذا
اعتقل أحدا نسيه ولا يرى بإخراجه.

ومحاسنه كثيرة وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من
التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها فإذا حضر من
يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلقها في الحال، وكانت هذه
من حسناته التي تفرد بها دون من تقدمه.

واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث في أيامه مما ينتظر وصول
مستحققيه من مشرق الدنيا ومغربها ما قدره مائة ألف وثلاثون ألف دينار،
فلما ولي القضاء القاضي ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي بن
الرسعني، بعد وفاة القاضي الجليس، رفع إليه اني قد اعتبرت ما في مودع
الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار ورفعها إلى بيت المال أولى
من تركها في المودع فإن لها السنين الطويلة لم يطلب شيء منها، فوقع
على رقعته «إننا قلدناك الحكم ولارأي لنا فيها لانستحقه فاتركه على حاله
لمستحققيه ولاتراجع فيه» فأخذها عرفا.

وبقي هذا القاضي، ابن الرسعني إلى آخر أيام الأفضل، فلما مات الأمير السعيد محمود بن ظفر والي قوص في أيام المأمون، وحضر المأمون والقاضي عزاءه وحضرت صلاة الصبح، أشار المأمون للقاضي بالتقدم للصلاة، فلما أحرم بالصلاة، أخذه هلع فلحن في الفاتحة وارتج عليه في (الشمس وضحاها) فوقف عند قوله (ناقة الله و سقياها) فردها المأمون عليه فزاد استبهاما، فكرر الرد على القاضي فلم يهتد، ثم صحف قوله تعالى (ناقة الله وسقياها) فقال (وسقناها) بالنون فقرأ المأمون عندها بقية السورة وسجد وسجد الناس، ثم قام إلى الركعة الثانية وقد دهش فلم يفتح عليه شيء، فقرأ الفاتحة و(قل هو الله أحد) وقت فلما انفض الناس وكل المأمون عليه حتى يحفظ القرآن وصرفه وقرر عوضه القاضي أبا الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، قاضي الغربية.

وأمر الأفضل بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر، فعمل ذلك، وجاء خمسة آلاف ألف دينار وكان متحصل الأهراء ألف ألف أردب.

وبني في أيامه كثير من المساجد والجوامع منها: جامع الفيلة المطل على الجبل المعروف بسطح الجرف، والمسجد الذي على جبل المقطم المعروف بالجيوشي، وبنى المأذنة الكبيرة بجامع عمرو بن العاص، والمأذنة السعيدية والمأذنة المستجدة به أيضا وجامع الجيزة.

وعمل خيمة سماها خيمة الفرح، ثم سميت بالقاتول، لأنها إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين واحد أو اثنان، اشتملت على ألف ألف ذراع وأربعمائة ألف ذراع، وقائمها ارتفاعه خمسون ذراعا بذراع العمل، صرف عليها عشرة آلاف ألف دينار، ومدحها جماعة من الشعراء.

وكان الأفضل يقول الشعر فمنه في غلامه تاج المعالي:

أقضيـب يـمـيـس أم هـو قـد

أو شقـيـق يـلـو ح أم هـو خـد

أنا مثل الهلال سقما عليه
وهو كالبدريحين وافاه سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه، وله فيها أخبار منها: أنه طلع ذات يوم
سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق فأمر بضرب
عنقها، فلما جيء برأسها بين يديه قال:
نظرت إليها وهي تنظر ظلها
فنزهت نفسي عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها
حذارا ومن مسك لها في الذوائب
ولي غيرة لو كان للبدري مثلها
لما كان يرضى باجتماع الكواكب

وكان عدة الوعاظ والقراء والمنشدين عند عزائه أربعمئة وعشرين
شخصا، فخرج أمر الخليفة أن يعطى كل واحد منهم ثمانين دينارا،
للصغير مثل الكبير، فقال ابن أبي قيراط: يا مولانا هذا مال كثير، فقال:
لا يريد أمرنا فهذا من بعض حقه علينا، فجاء مبلغ مادفع نحو من أربعة
وثلاثين ألف دينار.

وهو الذي أنشأ بستان البعل، والمنتزه المعروف بالتاج، والخمس وجوه
والبستان الكبير ببولاق، والبساتين بقليوب، وجدد بستان الأمير تميم،
ببركة الحبش، وأنشأ الروضة بحري الجزيرة فكان يمضي إليها كل يوم في
العشاريات الموكبية، رحمه الله.

وفيهما شرف القائد أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدولة أبي شجاع
فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بابن
البطائحي في الخامس من ذي الحجة، وكان قبل ذلك عند الأفضل
أستاذ دولته وهو الذي قدمه إلى هذه الرتبة، واستقرت نعوته في سجله

المقروء، على كافة الأمراء والأجناد «بالأجل المأمون تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع فخر الأنام نظام الدين والدعاة»، ثم نعت بما كان ينعت به الأفضل وهو «السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين».

ولما كان يوم الثلاثاء سابع ذي الحجة، وهو يوم الهناء بعيد النحر، جلس المأمون في داره عند أذان الصبح وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم من أرباب السيوف والأقلام، ثم الأمراء والأستاذون المحنكون، والشعراء بعدهم، وركب إلى القصور فأتى باب الذهب فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له في موضعها الجاري به العادة، وأغلق الباب الذي عندها على الرسم المعتاد لوزراء السيوف والأقلام، وهذا الباب يعرف بباب السرداب، وعندما شاهدها، توقف عن الجلوس عليها، لأنها حالة لم يجر معه حديث فيها، ثم ألجأته الضرورة لأجل حضور الأمراء (إلى) الجلوس عليها، فجلس وجلس أولاده الثلاثة عن يمينه وأخواه عن يساره، والأمراء المطوقون خاصة دون غيرهم قيام بين يديه، فإنه لا يصل أحد إلى هذا المكان سواهم، فلم يكن بأسرع من أن فتح الباب وخرج عدة من الأستاذين المحنكين بسلام أمير المؤمنين، وخرج إليه الأمير الثقة متولي الرسالة وزمام القصور، فعند حضوره وقف له أولاد المأمون وأخواه فطلع عند خروجه قبالة المرتبة وقال: أمير المؤمنين يرد على السيد الأجل المأمون السلام، فوقف عند ذلك الأجل المأمون وقبل الأرض وعاد جلس موضعه، وتأخر الأمير إلى أن نزل من المصطبة وقبل الأرض، وقبل يد المأمون، ودخل من فوره من الباب وأغلق الباب على حاله على ما كان عليه الأفضل وكان الأفضل يقول: ما أزال أعد نفسي سلطانا حتى أجلس على تلك المرتبة والباب يغلق في وجهي والدخان في أنفي فإن الحمام (كانت) من خلف الباب في السرداب، ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر فدخل إلى المكان الذي هيء له، ودعا لمجلس الوزارة وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس

الخليفة واستفتح القراء واستدعى المأمون فحضر بين يديه، وسلم عليه أولاده وأخواه، ثم وصل الأمراء على قدر طبقاتهم أولهم أرباب الأطواق، وتلاههم أرباب العماريات والأقصاب والضيوف والأشراف، ثم دخل ديوان المكاتبات سلم بهم الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة، ثم ديوان الإنشاء سلم بهم الشريف ابن أنس الدولة، ثم نقيب الطالبين بالأشراف، ثم سلم القاضي ابن الرسعني بشهوده، والداعي ابن عبد الحقيق بالمؤمنين، ثم سلم القائد مقبل الركاب الأمري بجميع المقدمين الأمرية، ثم سلم بعدهم الشيخ أبو البركات بن أبي الليث متولي ديوان المملكة، ثم دخل الأجناد من باب البحر وسلم كل طائفة بمقدمها، فلما انقضى ذلك دخل والي القاهرة ووالي مصر وسلم كل منهما بياض أهل البلدين، ثم البطرك بالنصارى وكتاب النصارى، ورئيس اليهود وكتاب اليهود، ثم سلم المقربون وقد قارب العصر، ودخل الشعراء على طبقاتهم وأنشد كل واحد منهم ماسمحت به قريحته، فكان هذا رتبة المأمون في هذا اليوم.

وفيهما عمر المأمون الجامع الأقرم بالقاهرة وكان مكانه دكاكين علافين.

سنة ست عشرة وخمسةائة

في ربيع الأول أمر المأمون وكيله الشيخ أبا البركات محمد بن عثمان أن يتوجه إلى المساجد السبعة، التي بين الجبل والقرافة، وأولها مشهد السيدة زينب، وآخرها مشهد السيدة كلثوم ويجدد عمارتها، ويصلح ما تهدم منها، ويجعل على كل مشهد لوحا من رخام عليه اسمه وتاريخ تجديده، فمدحه الشعراء بقصائد عند فراغ العمارة.

وفيهما أراد الأمر أن يحضر إلى دار الملك في النيروز الكائن في جمادى الآخرة في المراكب على ما كان عليه الأفضل، فأعاد المأمون عليه أنه

لا يمكن، فإن الأفضل لايجري مجراه الخليفة، وحمل إليه المأمون من الثياب الفاخرة برسم (النوروز) للجهات ماله قيمة جلية.

وفي شوال أمر المأمون بعمل دار ضرب بالقاهرة فعملت وضرب فيها، وأمر أن يكون الدينار أعلى ذهباً من كل دار ضرب فبنيت بالقشاشين

وفيهما أمر ببناء دار وكالة بالقاهرة، لمن يصل من العراق والشام من التجار.

وفي ذي القعدة صرف قاضي القضاة ثقة الملك ابن الرسعني ، وقد تقدم سبب صرفه، وتولى مكانه القاضي جلال الملك أبو الحجاج يوسف ابن أيوب المغربي، وكان قاضي الغربية، وأشهد ستة عشر نفساً بأمر المأمون فإنه خرج أمره للقاضي أن يستشهد من يقع عليه الاختيار، فاختار جماعة طالعه بأمرهم فانتقى منهم ستة عشر.

وفيهما اتدب المأمون وحشي بن طلائع فمضى إلى صور، وقبض على مسعود بن سلاار واليهما، فإنه كان قد خالف وأحضره مقهوراً.

وفيهما جهز المأمون أسطولا في البحر، وأوسق المراكب بخمسة عشر ألف أردب قمح وأقوات كثيرة فمضت إلى صور وملكتها وأحضرت واليهما مسعود بن سلاار.

وفي رجب وصل الدوك من عسقلان، وأخبروا أن الباطنية فرحوا بقتل الأفضل.

وفيهما نقل المأمون عمارة المراكب الحربية من الصناعة التي بجزيرة مصر، إلى الصناعة القديمة بساحل مصر، وبنى عليها منظره.

سنة سبع عشرة وخمسة

فيها ورد من المغرب إلى الاسكندرية، طائفة من لواتة فأفسدوا في أعمالها فسادا كثيرا، فندب المأمون أخاه نظام الدين أبا تراب حيدرة الملقب بالمؤتمن لقتالهم فكسرهم وقتل منهم خلقا كثيرا، وكسب خيولهم وأموالهم، ثم دخل مدينة الاسكندرية، وكانت مراكب الينادقة قد هجموا على ساحل الثغر وقتلوا وأسروا فحاربهم وأخذ الاسارى.

وفي جمادى الأولى كان وصول رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن معز بن باديس، صاحب المهديّة، يخبر بانحيازة للدولة وأن رجار بن رجار، صاحب صقلية، تواصلت أذيته واستعد لمحاربتة، وسأل أن يسير لرجار يمنعه، فسير من مصر إليه مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخد، فأصلح بينهما.

وفي شوال توجه هلال الدولة سوار رسولا الى حرة اليمن. وفيها وصل رسول من ظهير الدين أتاك، صاحب دمشق، ورسول من آق سنقر، صاحب حلب، يكتب للخليفة الأمر، فلما وصلا باب الفتوح ترجلا وقبلاه ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك، وأوقفنا عند باب البحر قدر ما جلس الخليفة، وكانت كتبها تتضمن الأخبار بنزلة الفرنج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية، وأن الفرصة قد أمكنت فيهم، وسألا أن يجهز بعض العساكر والأساطيل، فنفق في العساكر، وجهز المأمون أربعين شينيا فيها عشرون أميرا وهدايا وأجوبة الكتب صحبة الرسل الواصلين، فسار العسكر إلى يافا وأقام عليها ستة أيام، ورحل عنها وقد تناذل عنه ملوك الشرق، ورجع إلى مصر فوفاه الفرنج على بينى في ثاني ربيع الآخر فانكسر العسكر المصري من غير مصاف.

وفي ربيع الأولى أغلق المأمون دار العلم التي بالتبانين مجاورة القصر

الصغير، وذلك أن رجلا يعرف بحميد بن مكى الأظفيحي القصار ادعى الربوبية واجتمع معه خلق كثير، وكان يصعد الجبل المقطم ويحضر لأصحابه ما يريدونه ويناول كل واحد ما يشتهي، وكان أولا جيد النظر في علم الكلام على طريق الأشعرية، ثم انسلخ من الاسلام وسلك طريق السحرة والموهين، فحكيت عنه حكايا كثيرة، فقبض عليه المأمون وقتله هو وجماعة كثيرة من أصحابه، وكان ذلك سبب إغلاق دار العلم فإنه أفسد عقول جماعة.

وفيها نقل المأمون الرصد من الجبل المطل على راشدة إلى علو باب النصر بالقاهرة، فتقدم شيوخ الصناعة الفلكية أبو عبد الله الحلبي، وابن العيثمي، وأبو جعفر بن حسداي، وابن سند، وأحمد بن مفرج الشاعر، وابن قرفة ومعهم جماعة فوجدوا الطائرة الواحدة قد فسدت، فجمع السباكون واحضر لهم ما يحتاج إليه من النحاس والذهب والفضة وسبكت الدائرة وأعيدت بحضرة الشيوخ بعد تعب كثير ومصروف كبير ونقلت إلى أعلى الباب فاستمرت إلى آخر أيام الأمر، فلما كثر الهرج أهمل وأفسد ثم نهب ما قدر عليه منه، فحمل إلى المناخ، فلما نهب المناخ كسرت الطارات بالفؤوس ونهبت وبقي منها طارتان على أحديهما اسم الأفضل وعلى الأخرى اسم المأمون خفي مكانها وسلمها فكانا بالمناخ.

وفيها توفي ولي الدولة (أبو البركات) بن عبد الحقيق داعي الدعاة، فاستقر عوضه أبو محمد حسن بن آدم، ثم صرف لحدائثة سنه، وقرر أبو الفخر صالح، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

سنة ثمان عشرة وخمسةائة

فيها ملك الفرنج مدينة صور، واستمرت بأيديهم حتى زالت الدولة، وكان أخذها بعد محاصرتها مدة، وتناصر المأمون عن نجدتهم، فأغاثهم

ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، ووصل إلى بانياس وراسل الافرنج فوق الاتفاق على أن يتسلموها بالأمان فخرج أهلها بما خف حمله وتفرقوا في البلاد، وكان تسليمهم إياها في الثامن والعشرين من جمادى الأولى.

وفيها أمر ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كسر السد بخليج القاهرة بالكرءاء، وذلك أن الناس عند كسر الخليج كانوا يعملون أخشابا يركبون بعضها على بعض ليتفرجوا عليها، فيحصل لهم الضرر، ولم يكن هناك من الآدر سوى دارين إحداهما لأبي عبد الله محمد بن المستنصر ولي العهد، والأخرى دار ابن معشر ولم تزل هذه الدور الثلاثة إلى أن أحرقت في أيام شاورز في كائنة سنة تسع وخمسين وخمسة مائة ولم يبق لها أثر.

وفيها توفي بالموت الحسن بن صباح، رئيس الاسماعيلية وقد تقدم خبر قدومه إلى مصر في أيام المستنصر، ومسير ابن صباح إلى المشرق وأخذه قلعة الموت.

فلما مات المستنصر مال ابن صباح إلى القول بإمامة نزار بن المستنصر، وانكر إمامة المستعلي وإمامة ابنه الأمر، وندب جماعة لقتل الأفضل.

فلما ولي المأمون بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا لموت الأفضل وقتله، وأنهم قد امتدت آمالهم لقتل الأمر والمأمون معا، وأنهم أرسلوا رسلا لأصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال للتفرقة عليهم.

فتقدم المأمون إلى والي عسقلان وصرفه عنها وولى غيره، وأمره بعرض أرباب الخدم بها، وأن لا يبقى فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد، ووصاه بالاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم وحلاهم، بل يكشف عن بعضهم من بعض ويفرق بينهم ويبالغ في كل ذلك، ومن

وصل ممن لم تجر له عادة بالوصول إلى البلاد فليعوقه بالثغر ويطالع بحاله وبما معه من البضائع، وكذلك الجمالون لا يمكن أحدا من الوصول إلى البلاد إن كان معروفا مترددا، ولا يسير قافلة إلا بعد أن يتقدمها كتابه إلى الديوان بعدة التجار وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين، وذكر أصناف البضائع، ليقابل بها في مدينة بليس وعند وصولهم إلى الباب، ويكرم التجار ويكف الأذى عنهم.

ثم تقدم أمر المأمون لواليي مصر والقاهرة وأمرهما ان يسقعا له شارعاً شارعاً وحارة حارة بأسماء من فيها من السكان وأن لا يمكننا أحدا من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره بما يعهداه فيه.

فلما وقف على أوراق التسقيع وفيها أسماء أهل مصر والقاهرة وكناهم وأحوالهم ومعاشهم، ومن يصل إلى كل ساكن من سكان الحارات من الغرباء حينئذ سير من قبله نساء يدخلن هذه المساكن ويتعرفن أحوال الباطنية، فكانت أحوال من بالقاهرة ومصر لا يخفى عليه منها شيء، ولذلك امتنع من يصل إليه من الباطنية، سوى من يصل من بلاد العجم وغيرها لهذا القصد.

ثم إنه ركب في يوم من الأيام جماعة من العسكرية وفرقهم وأمر بمسك من عينه فمسك منه جماعة كثيرة، منهم رجل كان يقرى أولاد الخليفة الأمر، ومسك رسلا معهم المال الذي سيره ابن صباح برسم نفقة المقيمين بمصر فأخذه، وكانت هذه الفعلة من المأمون من عجائب الخدق، وبث مع ذلك الجواسيس في أقطار الأرض، وكان الباطني إذا خرج من الموت لاتزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة حتى يصل بليس فيمسك بها ويحمل إليه فيقتله.

وقال للخليفة الأمر: كشفت الغطاء وفعلت ما لا يقدر أحد على فعله،

وأما القصر فما لي فيه حيلة، ولوح للآمر أن أخت نزار وأولاده لا يمكنني كشف أمرهم، فبلغ أخت نزار القصة فحضرت (إلى الخليفة) الأمر لتبريء نفسها، ورغبت أن تخرج للناس لتقول ماسمعت من والدها وشاهدته ليكون قولها حجة على من يدعي لأخيها ماليس له، فاستحسن الأمر ذلك وأحضر المأمون، وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلي، واتفقوا على يوم يجتمعون فيه.

فلما كان في شوال سنة ست عشرة وخمسة استدعى دعاة الاسماعيلية، وأحضر أبو الحسن علي بن أبي أسامة، كاتب الدست، وولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة وأبو محمد بن آدم متولي دار العلم بالقاهرة، وأبو الثريا بن مختار فقيه الاسماعيلية ورفيقه أبو الفخر، وجماعة من الأمراء وغيرهم، والشريف ابن عقيل، وقاضي القضاة، وشيوخ الشرفاء، وأولاد المستنصر، وجماعة من بني عمها ممن وقع عليه الاختيار.

وكان المأمون إماميا فاحتجوا بأن المستنصر نعت المستعلي ولي عهد المؤمنين وأفرده بذلك فدل على تخصيصه، إذ ولاية عهد المؤمنين تتضمن ولاية عهد المسلمين، لأن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس وكان المستنصر نعت المستعلي بهذا النعت لما عقد نكاحه على ابنة أمير الجيوش بدر.

واحتجوا بأن من يقول أنه ضربت السكة باسم نزار وأن الدينار المنقوط باسمه، قول باطل وأن المنقوط ضرب العزيز، ولو كان الأمر على ما يقولون لما كان فيه حجة لأن الحاكم ضرب السكة باسم بعض بني عمه نيابة عنه وليس بإمام، وأن الوزير اليازوري سأل المستنصر أن يكتب اسمه على سكة نقش عليها «ضربت في دولة آل الهدى آل ياسين سنة كذا» وطبعت عليها الدنانير نحو شهر ثم بطلت، وأمر المستنصر بأن لا يسطر في السير.

واحتجوا بأن المستنصر لما جرت على دولته الشدائد سير أولاده عبد الله إلى عكا لأمر الجيوش، وسير أبا القاسم والد الحافظ، لعسقلان، ونزار لثغر دمياط، وسير الأعلى إلى الأعلى، ولم يسمح بخروج المستعلي من قصره (لما أهله له من الخلافة).

وعند وفاة المستنصر بايع نزار المستعلي فجرى في هذا مفاوضة.

وكانت أخت نزار في قاعة صغيرة بجانب الإيوان بالقصر وعلى الباب ستر، وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الأستاذين، فلما جرى هذا الفعل قام المأمون من مكانه ووقف بإزاء الستر وقال: من وراء الستر؟ فعرف بها إخوتها وبنو عمها، وأنه ليس غيرها وراء الستار، فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا علي يا جماعة الحاضرين، وبلغوا عني جماعة المسلمين، أن أخي شقيقي نزار لم يكن له إمامه، وإنني بريئة من إمامته جاحدة لها لاعة لمن يعتقدها، لما علمته من والدي وسمعته من والدي، لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمية والدة عبد الله أخي إلى المنظرتين اللتين على القناطر المعروفتين بالحولا والبرياب للنزهة أيام النيل جرى بينهما مشاجر في ولديهما، فأحضرهما المستنصر بين يديه وأنكر عليهما، وقال: ما يصل أحد من ولديكما إلى الأمر صاحبه معروف في وقته، وشاهدت والدي المستنصر، في المرضة التي توفي فيها، وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبل بين عينيه وأسر إليه طويلا وتدمعت عيناهما، وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليله استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا، ومد يده إليها فقبلها وعاهدها واشهد الله تعالى معلنا ومظهورا.

فلما انتقل في تلك الليلة حضر صبيحتها الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد، ووقف بظاهر المقرمة ثم جلس وكلهم قيام وأخذ في التعزية، ثم قال: يامولاتنا من ارتضاه للخلافة؟ فقالت: هي أمانة قد

عاهدني عليها، وأوصاني بأن الخليفة من بعده ولده أبو القاسم أحمد، فحضر وبايعته عمتي، وبايعه أخوه الأكبر عبد الله، فأشار الأفضل إلى نزار فبايعه، وأمر الأفضل بالتوكيل على نزار وتأخيره فأخر إلى مكان لا يصلح له، واستدعى الأفضل الداعي وأمره بأخذ البيعة من نفسه ومن الموالي والأستاذين، وسألت عمتي الأفضل في نزار فرفع عنه التوكيل عليه بعد أن كلمه بكلام فيه غلظة، ووالله مامضى أخي نزار إلى ناصر الدولة أفتكين بالاسكندرية لطلب إمامة ولاإدعاء حق، ولكن طالبا لزوال الأفضل وإبطال أمره لما فعل معه، والله يلعن من يخالف ظاهره باطنه، هذا آخر مناطقت به، فشكرها الناس على ذلك.

وأمر المأمون ابن الصيرفي الكاتب بإنشاء سجل يقرأ على منبر مصر بذلك، فكتبه وانفض المجلس.

وأما النزارية فإنها تقول إن المستنصر لما مات، والأفضل صاحب الأمر وهو مستحوز على المملكة والجنود جنده وغللمان أبيه لا يعرفون سواه، وكان نزار لما يرى من الغلبة من الأفضل على الدولة يتكلم بما يبلغه فينكره فتخوف شره، فلما مات المستنصر ولى أحمد المستعلي لأنه زوج أخته، وإنها ذكر هذا المجلس هنا ليصير الكلام منسجما بعضه على بعض، ولم تزل الاسماعيلية بجبل ألموت ومملكتهم يقولون بإمامة نزار إلى أثناء الدولة التركية.

وأما ابن صباح فإنه لما قربت وفاته أخرج فتى، كان مختفيا عنده، وسلم إليه جميع قلاعه، وكانت عامة من في دعوته تحت طاعته فلم يمت حتى ملك بالشام جبل عاملة وحصن العليقة والكهف ومصيف والخوابي وحصن الأكمة وقلعة العيد.

ثم امتدت مملكته بعد وفاته، فصار لهم عدة بلاد ومملكة طويلة إلى

حد شرقي أذربيجان وبحر طبرستان وجرجان، ولهم بخراسان مدينة كبيرة يقال لها رشيش، أخذها منهم شهاب الدين محمد في سنة سبع وتسعين وخمسة، وقتل كل من فيها، وبقي بأيديهم إلى آخر سنة اثنتين وستين وستمائة بالشام ثمان قلاع على جبل عاملة: قلعة الكهف، والعليقة، والقدموس، والخوابي، والمنيقة، ومصياف، والرصافة، والقلبعة، وكان رئيسهم في سنة سبت وخمسين وستمائة رضي الدين أبو المعالي، وقدم إلى مصر رسولا منهم قبل ان يرأس عليهم في شوال سنة خمس وستين، وفيها خرج من مصر فرأس عليهم.

ولما ملك التتر الشام سلموا إليهم أربع قلاع من هذه القلاع، فلما كسرهم المظفر قطز عادت الأربع قلاع إليهم، فتسلمها رئيسهم، وقتل أصحابه الذين سلموها للتتر، وتوفي في سنة ستين وستمائة، ورأس عليهم نجم الدين اسماعيل بن أبي الفتح الشعرائي.

وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح وإلى سنة بضع وعشرين وستمائة عظيما، وجرى للناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب معهم أمور.

ثم إن الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية، ومن كان بألموت يقال لهم الباطنية والملاحدة، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم اسماعيلية، وكان للرئيس فيهم على كل ملك إقليم مال يحمل إليه تقية من شرهم.

ولما انفض المجلس أمر المأمون ابن الصيرفي فكتب لابن صباح كتابا طويلا يدعوه إلى الحق، فيرجعه عن القول بإمامة نزار ويحتج عليه بأمور مما ذكرنا، وسيره على يد ستة نفر من العربان فلم يسيروا غير مسير حتى وردت رسل الدعاة وعلى أيديهم كتب فيها الارعاد والابراق والازعاج بالم

تجر به عادتهم، ويذكرون ان القوم قويت عزائمهم وطالت ألسنتهم بما يصل إليهم من كتب أهل البلاد متضمنة بأن الله قد سهل الأمر، وقد وجدوا السبيل إلى إظهار الحق، وما يقين العاقبة إلا منكم لأنه قد تجرد من الركوب والتوجه إلى البساتين والمنتزهات والمقام بها ليلا ونهارا ما اتسع فيه المجال وتحقق به بلوغ الآمال، ويخاف أن يعود الحال إلى ما كان عليه فيعود الطلب عسيرا، وقد توجه إليكم جماعة يبال كثير، وهم مقيمون في بلادكم عند جماعة يخفون أمرهم والقوم يسيرون المال مع التجار، فجمع المأمون الجماعة بين يدي الأمر وفاوضه في أمرهم، وأخذ المأمون في فعل ما تقدم ذكره من الضبط والحزم.

سنة تسع عشرة وخمسة

في ليلة السبت لأربع خلون من رمضان قبض الخليفة الأمر على وزيره المأمون بن البطائحى، وعلى إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من خواصه وأهله، واعتقله وصلبه مع إخوته في سنة اثنتين وعشرين وخمسة.

واختلف في سبب القبض عليه، فقيل أنه بعث إلى الأمير جعفر، أخي الخليفة، يغريه بقتل أخيه ليقمه مكانه في الخلافة، فلما تقرر الأمر على ذلك، بلغ الشيخ الأجل أبا الحسن علي بن أبي أسامة ذلك، وكان خصيصا بالخليفة الأمر قريبا منه، وأصابه أذى كثير من المأمون، فأعلم الأمر بالحال، وأنه سير نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن وأمره ان يضرب السكة ويكتب عليها «الإمام المختار محمد بن نزار».

وقيل بل سم مبضعا ودفعه لفصاد الأمر فأعلمه بالقصة فقبض عليه.

وكان مولده في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة أو سنة تسع، وكان من

ذوي الآراء والمعرفة الثامة بتدبير الدولة كريبا، واسع الصدر، سفاكا للدماء، كثير التحرز والتطلع إلى أحوال الناس من العامة والجنود، فكثير الوشاة في أيامه.

وذكر ابن الأثير في «تاريخه» عن أبيه: أنه كان من جواسيس الأفضل بالعراق وأنه مات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير بمصر، فدخل مع الحمالين إلى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفا رشيقا حسن الحركة حلو الكلام، فأعجبه وسأل عنه فقيل له: هو ابن فلان فاستخدمه مع الفراشين، ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته.

قال المؤلف: هذا وهم فإن والد المأمون توفي في سنة اثنتي عشرة وخمسة، وولده مدبر ملك الأفضل، ورأيت جزءا فيه من مرثي والدي المأمون شيء كثير، ومدح الأفضل في بعض المرثي وقد ذكرنا ذلك في سنة اثنتي عشرة.

ورأيت في كتاب «البستان بحوادث الزمان» أن المأمون كان يرش بين القصرين بالماء.

سنة عشرين وخمسة

فيها جهز الأمر الأمير المنتضى بن مسافر الغنوي بخلع سنوية، وتحف مصرية، وثلاثين ألف دينار للأمير الهرسقي، صاحب الموصل، فسمع في الطريق بقتل المذكور فرجع بها معه إلى مصر.

وفيها قدم إلى مصر الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم

مصنف «سيرة الافرنج الخارجين إلى بلاد الاسلام» في هذه السنين، برسالة من حلب.

وفي شوال كان بدء أمر الراهب بمصر في مصادرات الناس.

سنة إحدى وعشرين وخمسة

فيها أحضر نجيب الدولة، داعي اليمن، وكان المأمون قد سيره إلى اليمن فبعث به صاحب اليمن فدخل على جمل وخلفه قرد يصفعه بدرة محشوا حصى في يوم عاشوراء، وصلب.

وفيها توفي قاضي القضاة أبو الحجاج يوسف بن أيوب بن اسماعيل الأندلسي، وكان قد أقرأ المؤمن أخا الوزير المأمون القرآن والنحو، فولاه قضاء الغربية، ثم نقل إلى قضاء القضاة بعد ابن الرسعني بوساطة المؤمن، ولما مات استقر مكانه في القضاء أبو عبد الله محمد بن هبة الله ابن الميسر القيسراني.

سنة اثنتين وعشرين وخمسة

فيها أحضرت رأس بهرام الباطني، وكان طغتكين قد وهب له بانياس خوفا من شره، فتضايق الحال وأفسد أصحابه بالشام، إلى أن جرت له حادثة فقتل وحملت رأسه إلى مصر.

وفيها رتب الأمر قاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر مشارفا على ثقة الدولة بن أبي الرداد في قياس الماء وعمارة المقياس، وعمل مصالحه فاستمر إلى أن قتل، فلم ينظر بعده أحد على هذه الجهة، واستمر ابن أبي الرداد بمفرده وأطلق له في كل سنة مائة قنطار جير لعمارة المكان.

وفي الليلة المسفرة عن العشرين من رجب، قتل المأمون بن البطائحي الوزير، وصالح بن العفيف، وعلي بن ابراهيم بن نجيب الدولة، وأخرجوا ثلاثتهم إلى قرب سقاية ريدان فصلبت أبدانهم بغير رؤوس، وفي صدر كل واحد رقعة فيها اسمه، فشك الناس فيهم، فأخرجت رؤوسهم وحملت على أبدانهم.

وقيل بل كانت ولاية ابن ميسر القضاء في ذي الحجة منها، ولقب «ثقة الدولة القاضي الأمين سناء الملك شرف الأحكام قاضي القضاة عمدة أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي الفرج هبة الله بن ميسر» فواصل الملازمة والدأب، وتوفر على الانتصاب للجلوس، واعتمد التثبيت في الأحكام، وعدل جماعة فبلغت عدة الشهود في أيامه ما يزيد على مائة وعشرين، ولم تكن عدتهم تبلغ الثلاثين، وردت إليه المظالم فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بها حضرة أمير المؤمنين، وكانت فيهم جماعة قد يسوا من الفرج، فاستخرج أمر الخليفة بالإفراج عنهم وتكلم مع الخليفة في أمر التجار، فكتبت مناشير في معانهم تليت على المنابر.

سنة ثلاث وعشرين وخمسةائة

فيها قتل أبو نجاح النصراني المعروف بالراهب، قتله الأمير مقداد، والي مصر، وصلبه عند الجسر، ثم أمر به فأنزل وربط على خشبة ورمي به في النيل، وخرجت الكتب إلى الأعمال بأن ينظروه كلما أوقفه التيار في مكان يجدرونه عنه، فلم يزل كذلك حتى خرج إلى البحر المالح.

وكان ابتداء أمره أنه كان يخدم ولي الدولة أبا البركات يحنا ابن أبي الليث، ثم اتصل بالأمير بعد قتل المأمون، وبذل له في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم وتسلسل الحال حتى عم

البلاء منه لجميع رؤساء مصر وقضاتها وكتابها وسوقتها، بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه من ضرب أو نهب أو أخذ مال، وارتفع عند الخليفة حتى كان يعمل له بتينس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصوف الأبيض (المنسوج) بالذهب فيلبسها ومن فوقها غفارة ديباج، ويتطيب بعدة مثاقيل مسك كل يوم، فكان يشتم ريحه من مسافة بعيدة، ويركب الحمير بسروج محلاة بالذهب، والفضة، ويجلس بقاعة الخطابة في الجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة، واتفق أنه طلب يوماً رجلاً من مصر يعرف بابن العرس من العدول المتميزين، وكان معظماً عند الناس، فأهانته وأحرق فيه، فخرج من عنده ووقف بالجامع في يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر انظروا عدل مولانا الأمر في تمكينه (هذا) النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنه، فدخل خواص الأمر وخوفوه عاقبة ذلك وأعلموه ما حل بالمسلمين، فاستدعاه وكان بحضرته رجل من الأشراف فأنشد:

إن الذي شرفت من أجله
يـزعم هذا أنه كاذب

فقال له الأمر: ماتقول ياراهب؟ فسكت فأمر به فقتل

ووجد له في مقطع ثلاثمائة طراحة سامان محشوة جددا لم تستعمل قد رصت إلى قرب السقف، هذا من نوع واحد فكيف ماعداه، وأصله من أشمون طناح وترهب أولاً على يد أبي اسحاق بن أبي اليمن، وزير ابن عبد المسيح متولي الديوان بأسفل الأرض.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

في ربيع الأول ولد للأمر ولد فسماه أبا القاسم الطيب، وجعله ولي عهده وزينت مصر والقاهرة، وعملت الملاهي في الأسواق وبأبواب

القصور، ولبست العساكر، وزينت القصور، وأخرج الأمر من خزائنه وذخائره قماشاً وصياغات وأواني ذهب وفضة، فزين بها وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوماً، وأحضر الكباش الذي يذبح في العقيقة وعليه جل ديباج وقلائد فضة، وذبح بحضرة الأمر، وأحضر المولود فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله، ونثرت الدنانير على رؤوس الناس، وعملت الأسمطة، وكتب إلى الفيوم والشرقية والقلوبية، بإحضار الفواكه فأحضرت وملىء القصر من الفواكه وغير(ذلك) وامتلاً الجو بدخان العود والعنبر.

وفي يوم الثلاثاء الثاني من ذي القعدة، قتل بجزيرة مصر الخليفة الأمر أبو علي المنصور بن المستعلي بالقرب من المقياس، وثب عليه عدة من النزارية فقتلوه، وحمل إلى المركب وأحدر من الخليج إلى اللؤلؤة، وحمل منها إلى القصر، فتوفي باقي يومه، وقبض على الجماعة فقتلوا وأحدروا في النيل، ونهب سوق الجزيرة.

وكان عمره يوم قتل أربعاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، ومولده يوم الثلاثاء الثالث عشر من محرم سنة تسعين وأربعمائة، وبويع يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين، وقتل يوم الثلاثاء ثالث عشر ذي القعدة وقيل ثاني عشره، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر ونصف، ولم يزل محكوماً عليه حتى قتل الأفضل وتولى المأمون، فتزايد أمره عما كان عليه في أيام الأفضل، فلما قتل المأمون ظهر أمره وصار يتصرف ويركب في يوم الجمعة والسبت والثلاثاء، فإذا لم يركب في يوم من هذه الأيام ركب في يوم غيره، فكان الناس من القاهرة ومصر يخرجون بالمعاش للنظر إليه فيكون يوم ركوبه مثل يوم العيد.

ولم يستوزر بعد المأمون وزير سيف، بل استبد بأمره وياشرها بنفسه، وكان قبيح السيرة في الرعية مبالغاً في ظلمهم وأخذ أموالهم واغتصاب

أملاكهم، كثير السفك للدماء، يرتكب المحظورات ويستحسن القبائح، وقد تقدم تمكينه الراهب.

وفي أيامه ملك الإفرنج كثيرا من المعامل والحصون بساحل الشام مما كان بيد آبائه، فملك عكا في شعبان سنة سبع وتسعين، وعرقه في رجب سنة اثنتين وخمسمائة، وتسلموا طرابلس بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة وملكوا باناس وجبيل بالأمان لثمان بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، ثم قلعة تبين في سنة إحدى (عشرة) وخمسمائة، ثم تسلموا صور في سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

ومن شعره:

أما والذي حجت إلى ركن بيته
جراثيم ركبان مقلدة شهبا
لأقحمن الحرب حتى يقال لي
ملكتم زمام الحرب، فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم
فيرضى بنا أصحابا ورضي به صحبا

وكان قد تجهز ليسافر إلى الشام للغارة على بلاد خليفة بغداد، فعمل آلات السفر منها مخالي الخيل من الديباج وقال في ذلك:
دع اللوم عني، لست مني بموثق
فلا بد لي من صدمة المتحقق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد تمزق

ووزراؤه: الأفضل ثم المأمون.

وقضاته: ابن ذكا النابلسي، ثم نعمة بن بشير الجليس النابلسي، واستقال فولى الرشيد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد الصقلي ومات، فتولى الجليس النابلسي ثانيا ثم صرف، وولي أبو الفتح مسلم بن الرسعني وصرف، فتولى أبو الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي ومات، فولى أبو عبد الله محمد بن هبة الله (بن) ميسر القيسراني، وقتل الأمر وهو على القضاء.

وكتابه في الإنشاء: الشريف سناء الملك أبو محمد بن محمد الحسيني الزيدي، والشيخ الأجل أبو الحسن بن أبي أسامة الحلبي، والشيخ تاج الرئاسة بن الصيرفي، وابن أبي الدم اليهودي.

ونقش خاتمه «الإمام الأمر بأحكام الله، أمير المؤمنين».

ولما قتل كتم الحافظ أمر ولده الذي ولد في هذه السنة فبايع الناس الأمير أبا الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، بولاية العهد إلى أن تنكشف أحوال نساء الأمر، هل فيهن حامل أم لا؟.

وثار الجند وأخرجوا ابن مولاهم أبا علي أحمد بن الأفضل الملقب بكتيفات وولوه إمرة الجيوش في يوم الاثنين وقيل الخميس سادس عشر ذي القعدة، فحكم واعتقل أبا الميمون صبيحة بيعته ودعا للإمام المنتظر.

وبها قبض الحافظ على جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط الكاتب، وابراهيم السامري الكاتب، ونهب الجند دورهما، وحبسا بسجن المعونة ثم أخرجا ميتين.

سنة خمس وعشرين وخمسةائة

فيها رتب أبو علي أحمد بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة، يحكم كل

قاض بمذهبه، ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية الفقيه سلطان وقاضي المالكية النبي، وقاضي الاسماعيليه أبو الفضل بن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل، ولم يسمع بهذا قط في ماسلف.

سنة ست وعشرين وخمسةائة

في يوم الثلاثاء سادس عشر محرم ركب أمير الجيوش أبو علي أحمد بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي إلى الميدان بالبستان الكبير، ظاهر القاهرة للعب بالكرة على عادته، فاتفق جماعة من الأجناد على قتله، فبدره بعض صبيان الخاص بطعنة ألقاه عن فرسه ونزل فاحتز رأسه ومضى بها إلى القصر، وأخرج الحافظ من الخزانة التي كان بها معتقلا وبويع بالخلافة بيعة عامة.

وكان أبو علي قد أسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق، الذي تنسب إليه الاسماعيليه، وأزال من الأذان «حي على خير العمل» وقطع ذكر الحافظ من الخطبة واختار لنفسه دعاء يدعو به على المنبر وهو «السيد الأجل الأفضل مالك أصحاب الدول، والمحامي على حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصرته، بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش».

وكانت مدة حكمه سنة وشهرا وثلاثة عشر يوما، وكان إماميا يكثر ذم الأمر والبغض له وكرهه الشيعة، ولما ولي جرى على منهاج أبيه في حب العدل وأعاد على الناس ما أخذ من أموالهم وأملاكهم، فحسده الأمراء وقتلوه، فدفن عند أبيه وجدته، وكان يلقب بكتيفات.

وفي ثالث ربيع الآخر قرىء سجل بإمامة عبد المجيد، وركب من باب العيد إلى باب الذهب بزي الخلفاء، ورفع عن الناس بواقى مكس الغلة، وأمر أن يدعى على المنابر «اللهم صلى على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آباءه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين».

واستوزر أبا الفتح يانس الرومي، من ممالك الأفضل أمير الجيوش، وكان أهدها باديس، جد عباس الوزير الآتي ذكره، إلى الأفضل، ولما ولي الوزارة لقبه الحافظ بأمر الجيوش، فتنبع الطائفة المعروفة بصبيان الخاص وقتل منهم جماعة منهم قاتل أبي علي كتيفات، وكان عظيم الهية بعيد الغور، كثير الشر، فخافه الحافظ وتخيل منه فأحس بذلك، فاستوحش هو أيضا من الحافظ وأخذ كل منهما يدبر على الآخر، فسبق تدبير الحافظ فيه وسمه في إبريق فاستعمل منه الماء وقت الطهارة فتلف منه، وتدارك نفسه بالعلاج حتى قارب النهوض والبرؤ، فشاور الحافظ بعض خواصه من الأطباء فأشار عليه أن يتوجه إلى زيارته وتهنئته بالعافية، فإن أمير المؤمنين إذا دخل عليه لا بد أن ينهض للقاءه ماشيا وإذا مشى لا يكاد ييقى، فمضى إليه الحافظ فلما راه يانس قام للقاءه وخرج عن فراشه، ومضى الحافظ بعد زيارته فانتكس ومات من ليلته في السادس والعشرين من ذي الحجة فكانت وزارته تسعة أشهر وأياما.

وفي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول صرف عن قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، وتولى مكانه سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر، وأضيفت الدعوة إليه فصار قاضي القضاة وداعي الدعاة.

سنة سبع وعشرين وخمسةائة

فيها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية، فكانت حرب بينهم وبين العسكرية.

وفيها تولى نظر الدواوين الشريف معتمد الدولة علي بن جعفر بن غسان المعروف بابن أبي العساف.

سنة ثمان وعشرين وخمسةائة

في شعبان كانت حرب بين أبي تراب حيدرة ابن الخليفة الحافظ، وبين أخيه حسن طالت واشتدت، فافترق لذلك العسكر فرقتين: فرقة مع أبي تراب، وفرقة مع حسن، وهما الريحانية والجيوشية، فكانت بينهم حروب بين القصرين قتل فيها من الطائفتين نحو عشرة آلاف نفس، وسبب ذلك أن الحافظ جعل ابنه حيدرة، ولي العهد من بعده، فلم يرض أخوه حسن بذلك، فكانت بينهما الحروب المذكورة، فاستظهر حسن على أخيه وهرب حيدرة والتجأ إلى أبيه، فبعث أبوه خلف ابنه حسن ليسكن أمره، فامتنع من المجيء إليه وطالبه بحيدرة أخيه، وضايق القصر وحاصره حصاراً شديداً، هذا والحافظ يتلافى ولده حسن وولاه ولاية العهد من بعده وكتب بذلك سجلاً قرىء، فتمكن حسن من الدولة وتصرف فيها حتى لم يبق لأبيه معه حكم البتة.

وفي يوم الخميس الثامن من شوال قتل القاضي سراج الدين أبو الثريا نجم، وقتل معه الشريف أبو العينين وجماعة، ورد حسن بن الحافظ القضاء لابن ميسر، وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

وتوفي القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد بن حمدون الكناني، قاضي الاسكندرية بثغر رشيد، وهو

عائد من مصر في جمادى الآخرة، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة وكانت له مدة في القضاء، وهو الذي كان السبب في اعتقال أبي الصلت أمية ورثي بعدة قصائد، وذكره السلفي وأثنى عليه.

وفي جمادى الأولى توفي أبو عبد الله الحسين (بن) أبي الفضل عبد الله ابن الحسين الزاهد الناطق بالحكم بن بشرى، المعروف بابن الجوهري، واعظ ابن واعظ ابن واعظ ابن واعظ، قرأ عليه السلفي وكان حلو الوعظ لم يكن في بيتهم أحلى كلاماً منه، وتعرض في آخر عمره لما لا يعنيه، فوشى به إلى الخليفة فسيره إلى دمياط وبها مات، وذلك أن الأمر ظهر له ولد يسمى قفيفة كان عند ابن الجوهري فعلم به الحافظ الخليفة.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها اشتد أمر حسن واستقل بتدبير الدولة، وكان الأمراء والأجناد يميلون إليه، فلذلك سألوا الحافظ أن يوليهم أمرهم، ففوض إليه ذلك كما مر، فحسده أخوه حيدرة، وقال: أنا ولي العهد، فجمع كل منهما واقتتلا فقتل بينهما جماعة من الأمراء وقتلهم بسبب قيامهم مع أبي علي كتيفات وأقام غيرهم، فخافه من بقي من الأمراء وعزموا على خلع الحافظ من الخلافة، وخلع ولده حسن، وتجمعوا بين القصرين وبعثوا للحافظ بما هم عليه، فسير إليهم واعتذر وفر ابنه حسن إليه فمسكه وقيده، وبعث إلى الأمراء يعلمهم، فسيروا إليه لابد من قتله فسقاه سماً قتل به، وجعله على سرير وأمر أن تدخل إليه الأمراء لتراه وهو ميت، فدخلوا عليه، فلما شاهدوه ميتاً سكنوا واطمأنوا وكان ذلك في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة.

وقيل إن الحافظ دس إلى الأمراء والأجناد أن يثبوا على ابنه حسن، وقيل إن الحافظ جعل ابنه سليمان ولي عهده ليسد به مكان وزير كي يستريح من الوزراء فمات بعد ولايته بشهرين، فحزن عليه وكان أكبر

أولاده، فترشح أخوه حسن، وهو يتلوه في العمر، لولاية العهد، فلم يرضه ذلك، فدعا لنفسه وكاتب الأمراء وعول على اعتقال أبيه ليستبد بالأمر، وأطمع الناس فيما يواصلهم به إذا تم أمره، فامتدت إليه الاعناق وكاتب الأمراء وكاتبوه، ثم خشوا ألا يتم له أمر مع وجود أبيه فأعلموا الحافظ الخبر بمكاتباتهم، فبعث بها الحافظ إلى ابنه حسن وقال: لاتعتقد ان معك أحدا فأوقع حيثنذ حسن بعدة من الأمراء وقتلهم وأخذ ما في دورهم وقصد إضعاف أبيه، وأخذ أبوه في إضعافه حتى أفسد عليه أمره وافتقر إلى أبيه، وكان قد سير إلى بهرام الأرمني يستحثه أن يصل إليه بالأرمن، فلما التجأ إلى أبيه وأعلم من بقي من الأمراء بمكانه خوفاً منه فاجتمعوا على طلبه من أبيه ليقتلوه، وصار بين القصرين من الفارس والراجل عشرة آلاف نفس، فراسلهم الخليفة وألان لهم في القول وقبح مرادهم من قتل ولده وأنه قد أزال عنهم أمره فلا يتحكم فيهم أبداً، ووعدهم بزيادة أرزاقهم فأبوا إلا قتله أو خلع الخليفة، وأحضروا الأحطاب والنيران لحرق القصر وبالغوا في الجرأة عليه، فلم يجد بدا من أن سألهم أن يمهلوه ثلاثة أيام ليرى مايفعله، فأجابوه لذلك، ولما علم أنه لا بد من قتل ولده قصد أن يكون قتله مستورا بشيء من السمومات، فأطلع طبيبه ابن قرفة، على ذلك، فقال: الساعة ولاينقطع شيء من جسده بل تفيض نفسه لاغير، فأحضر ابن قرفة شربة واستدعى الحافظ ابنه حسن ومازال به حتى شربها كرها من طائفة من الصقالبة جبروه على شربها فمات، وأعلم القوم سرا بما كان ليمضوا إلى دورهم فأبوا إلا أن يشاهده منهم من يثقون به، فانتدبوا أميرا اسمه محمد، وينعت بالأمير المقدم المعظم جلال الدين بن عبد الله بن محمد، ويعرف بجلب راغب، كثير الشر والشغب والجرأة، دخل على حسن وهو مسجى وعليه ملاءة فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكيناً وخرسها في مواضع خطيرة من جسده، فلم يتحرك فعلم حيثنذ أنه قد مات، فرجع إلى القوم وأخبرهم الخبر ففرقوا، ثم إن الحافظ بعد ذلك قتل طبيبه ابن قرفة.

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة خلت منه قدم بهرام الأرمني من الغربية إلى الديار المصرية، فاستوزره الحافظ ونعته «سيف الاسلام تاج الملوك» وكان نصرانيا، وذلك أنه لما وصل واجتمع بالحافظ رأى منه عقلا وافرا وإقداما في الحرب والسياسة وحسن تدبير.

وسبب وصوله أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه ممن ولي بعده فتعصب عليه جماعة من الأرمن ورفضوه وولوا عليهم غيره، فخرج من تل باشر مغضبا وقدم إلى القاهرة فندب للوزارة بها، وأخذ الحافظ يستشير من يثق به في ذلك فلم يشر به أحد عليه، وقيل: أولا هو نصراني فلا يرضاه المسلمون، والثاني من شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزرة الحاجبة بينه وبين الناس، والثالث أن القضاة نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة، فلم يصغ لذلك وقال: إذا رضينا نحن فمن يخالفنا وهو وزير السيف، وأما صعود المنبر فيستنصب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك، ويفعل ما كان يفعل قبل أمير الجيوش، واستوزره والناس يتكرون عليه ذلك، وقيل أنه ترقى في الخدم حتى ولي ولاية المحلة وأنه سار منها مجدا حتى وصل القاهرة وحاصرها يوما واحدا ودخلها، فقرر في الوزارة، وهو الصحيح.

وفي المحرم توفي الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الحزامي الاسكندراني المعروف بالحداد الشاعر بمصر.

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

فيها كان خروج بهرام من الوزارة واستقرار رضوان بن الوحشي، وذلك أن بهرام لما ثبت قدميه في الوزارة سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك، فأحضرهم من تل باشر ومن بلاد الأرمن، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان فاستطالوا على المسلمين، وأصاب المسلمين من النصارى جور عظيم.

وبنيت في أيامه كنائس وأديرة حتى صار كل رئيس من أهله يبنى له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا ملة الاسلام، وكثرت الشكايات فيه وفي أهله، وكان أخوه المعروف بالباساك قد تولى قوص وجار على أهلها جورا عظيما واستباح أموال الناس وظلمهم، فعظم على أمراء المصريين ذلك وشق عليهم، فبعثوا إلى رضوان بن الوحشي—وكان والي الغربية— كتبهم يستحثونه على المسير إليهم وإنقاذهم مما هم فيه.

وكان رضوان أحد الأمراء بالقاهرة ويوصف بشجاعة وإقدام، فلما ولي بهرام الوزارة خافه وخشي وثوبه عليه، فأبعده عنه وأخرجه من مصر، وكان إذ ذاك يلي حجة باب ابن الخليفة الحافظ، وخلع عليه بولاية عسقلان، في سلخ رجب سنة تسع وعشرين وخمسمائة، فوصل إلى عسقلان وأقام بها فوجد جماعة من الأرمن يتواصلون في البحر يريدون مصر، فناكدهم ورد بعضهم، فعظم ذلك على بهرام فصرفه عن ولاية عسقلان، واستدعاه إلى مصر، فشكره الناس على فعله في رد الأرمن فأخذ بهرام في إبعاده وولاه الغربية في صفر سنة إحدى وثلاثين، فلما وصلت إليه كتب الأمراء شمر لطلب الوزارة، وكان أول ما بدأ به أن رقي المنبر خطيبا بنفسه وخطب خطبة بليغة حرض الناس فيها على الجهاد، وكان ذلك بناحية سخا، وأخذ في حشد العربان وغيرهم فصار في نحو ثلاثين ألف فارس وسار إلى مصر لمحاربة بهرام، فلما قرب من القاهرة خرج

إليه بهرام بعساكر مصر، فلما تقاربا رفع رضوان المصاحف على الرماح فما هو أن رأى عسكر المسلمين المصاحف تركوا بهرام والتجأوا بأجمعهم إلى رضوان، وكان ذلك باتفاق منهم مع رضوان قبل قدومه، فلما رأى ذلك بهرام بعث إلى الحافظ يعرفه، فخاف من عاقبة ذلك، وسير إليه بالسير إلى الأعمال القوصية ليقيم بها عند أخيه حتى يرى رأيه، فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ معه ماخف حمله وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى، وسار إلى قوص وبعث بالمراكب في البحر فوصل قوص وماهو إلا أن انفصل عن القاهرة نهب العامة سائر ديار الأرمن، وكانوا قد نزلوا بالحسينية ظاهر باب الفتوح وعمروها منازل للسكنى، ونهبوا كنيسة الزهري، ونبشوا قبر أخيه البطرك.

وانتشر الخبر بانهبام بهرام فطار إلى قوص قبل وصوله إليها، فثار المسلمون أيضا بقوص على الباساك أخي بهرام، وقتلوه ومثلوا به وجعلوا في رجله كلبا ميتا وألقوه على مزبلة، فلما كان بعد ذلك بيومين قدم بهرام في طائفة من أقاربه وجنده فرأى أخاه بتلك الحال فقتل من أهل قوص جماعة بالسيف ونهبها وسار عنها إلى أسوان فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة ففارقه جماعة من أهله وعادوا إلى بلادهم واستقر هو هناك، وإلى الباساك تنسب القرية التي بالقرب من إطفيح.

وأما رضوان فإنه لما خرج بهرام من القاهرة دخل إليها فوقف بين القصرين واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله إلى دار الوزارة فنزلها وأخلع عليه خلع الوزارة ونعته «بالأفضل» وذلك لاحدى عشرة خلت من جمادى الأولى.

فكان أول مابدأ به أن بعث أخاه ناصر الدين بعسكر إلى بهرام فسار إلى الأديرة وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها، وعاد الجند الذي كانوا معه إلى مصر وارتحلوا عنها إلى بلادهم.

وفي يوم الأحد لسبع خلون من المحرم في وزارة بهرام صرف عن قضاء القضاة بديار مصر، أبو عبد الله محمد بن ميسر، وأبعد إلى تينس وقتل بها يوم الاثنين ثاني ربيع الأولى، وقدم من قيسارية إلى مصر مع أبيه وهو صغير في أيام أمير الجيوش بدر الجمالي عند حضوره إلى المستنصر أيام الشدة، وبعثه إلى البلاد الشامية لإحضار أرباب الأموال وذي اليسار، وكان ممن أحضر والد القاضي، وكان له مال جزيل ففوض إليه أمر الخطابة بمصر، وفتح بمصر دار وكالة وأقام بها مدة حتى مات فترقى ولده حتى ولي القضاء وتردد فيه عدة مرار وكان له كرم مشهور ورتبه جليلة وضرب باسمه دنانير كثيرة كان اقترحها على الخليفة الأمر.

وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى لأن أبا بكر محمد بن علي الماذرائي وزير الدولة الإخشيدية، عمل كعكا وسماه «افطن له» وعمل عوضا من حشو السكر دنانير، فلما حضر الناس في يوم العيد وأكلوا من طعامه، أراد بعض خدامه أن يؤثر إنسانا فقال له: افطن له، وأشار إلى الكعك، فتناول منه وصار يأخذ ما في حشوه من الذهب، فعمل القاضي ابن ميسر أيضا نظير ذلك صحفا فيه هيئة فستق ملبس حلوى على قلب فستق من ذهب وأطعمه أهل مجلسه، وسبب قتله أنه كان أسقط شخصا يعرف بابن الزعفراني فعاداه لذلك، وطلع إلى الخليفة الحافظ وذكره بأن كتيفات لما ولي الوزارة واعتقل الحافظ وجلس للهناء، ودخل الشعراء فهنوه بالوزارة، كان في جملة من أنشد علي بن عباد الاسكندري الشاعر قصيدة يذم فيها خلفاء المصريين وسوء اعتقادهم ذما قبيحا، أولها:
تبسم الدهر بعد تعيس

إلى أن قال منها في ذم الحافظ:

هذا سلبا نكم قدر دخاتمه

واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فلما وصل (ابن) عباد إلى هذا البيت قام القاضي ابن ميسر وألقى عرضيته طربا لهذا البيت، فكان ذلك سببا لصرف ابن ميسر عن القضاء وقتله، وأمر بإحضار الشاعر، فلما قام بين يدي الحافظ قال له أنشدني قصيدتك، فأخذ في إنشادها حتى قال منها في بيت:
ولاترضوا عن الخمس المناحيس

يعني الحافظ وأباه وابنية وجده— فأمر ان يلكمه الغلمان، فلکم حتى مات بين يديه، وكان ينعت «بجلال الدولة»، وكانت علامة ابن ميسر «الحمد لله على نعمه».

وفيها مات أبو البركات بن بشرى الجوهري الواعظ في جمادى الأولى عن إحدى وتسعين سنة، واستخدم في الحكم أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي عقيل، ونعت «بقاضي القضاة الأعز أبي المكارم».

وفيها ثار بناحية برقة رجل من بني سليم أدعى النبوة، فاجتمع عليه أناس كثير، وزعم أنه ينزل عليه قرآن منه «أيها الناس إنما الناس بالناس، ولولا الناس لم تكن الناس والجميع برب الناس»، ثم انفض عنه جمعه وانحل أمره.

وفي ذي القعدة جلس الوزير رضوان لاستخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصارى، واستجد ديوان الجهاد، وأحضر جميع الدواوين وكشفها ورتبها، ودبر الأمور أحسن تدبير.

وكان من جملة الضمان في أموال الدولة هبة الله بن عبد المحسن الشاعر، فلما عرض حسابه وجد قد انكسر عليه في ضمانه، فكتب له في مجلسه هذه الأبيات:

أنشاعروصناعتي الأدب

وضمان مثلي المال لايجب

أنا مستمحيكم وليس علي من
جاء يطلب رفقكم طلب
وإذا تأخر الباقي علي فما
من حاصل ورق ولا ذهب

فسأحه مما عليه من الباقي.

وفي رمضان أحضر من الصعيد الأعلى جماعة يقدمهم رجل بجاوي
يدعى فيه أصحابه أنه إله، فصلبوا أصحابه وقطعت رأسه.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسة

فيها أطلق الوزير رضوان شمس الخلافة مختار الأفضل، صاحب باب
بهرام، من اعتقاله وولاه الاسكندرية.

وفيها شدد رضوان على النصارى أصحاب بهرام وصادرهم وقتلهم
بالسيف وأباد أكثرهم.

وفيها أحضرت من تيس امرأة بغير يدين وموضع اليدين مثل
الحلمتين، فأحضرها الوزير إلى مجلسه وأخبرته أنها تعمل برجليها
ماتعمله بيديها من رقم وخط وغير ذلك، فأمر لها بدواة، فتناولت الأقلام
برجلها اليسرى (وتأملتها) قلما قلما، فلم ترض شيئاً منها فأخذت السكين
وبرت لنفسها قلماً وشقته وقطعته واستدعت ورقة فأمسكتها بالرجل
اليمنى وكتبت بالرجل اليسرى رقعة بأحسن خط تكتبه النساء، وحمدت
الله في آخر الرقعة وناولتها الوزير، فإذا قد سأله فيها أن يزداد في راتبها،
فزداد لها خلف رقعتها وأعادها لبلدها.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسةائة

في رمضان سير الحافظ من أحضر إليه بهرام الأرمني وأسكنه بالقصور عنده وأكرمه، فعظم ذلك على رضوان، وأخذ الحافظ يشغب عليه الجند حتى ثاروا به، فكانت بينهم وبين رضوان حرب بالقااهرة، فطلب السكن مع الحافظ في القصر، فلم يجبه، فازدادت الوحشة بينهما حتى ضعفت قدرة رضوان على لقاء العسكر ففر من مصر في خامس عشر شوال وقيل في ثالث عشره، وقصد كمشتكين، والي صرخد، وأقام عنده مكرما مبعجلا.

وفي شعبان توفي الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن ابن أبي عقيل، فأقام منصب القضاء شاغرا ثلاثة أشهر.

ثم اختير في ذي القعدة أبو العباس أحمد بن الحطيئة، فاشترط أن لا يحكم إلا بمذهب الدولة، فلم يتمكن من ذلك، فتقدم رضوان إلى الفقيه أبي (عبد الله) محمد بن عيد المولى أن يعقد الأنكحة.

ثم ولي الحافظ قضاء القضاة للقاضي فخر الأمان هبة الله بن حسين الأنصاري في الحادي عشر من ذي القعدة.

سنة أربع وثلاثين وخمسةائة

في سلخ المحرم عاد الأفضل رضوان بن الوخشي من صرخد، في جمع كثير، فبرزت له العساكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى إلى سطح الجرف ونزل بباب الرصد في يوم الثلاثاء مستهل صفر، ثم مضى إلى الصعيد، فسير الحافظ عسكرا يقدمه الأمير (سيف الدولة) أبو الفضائل ابن مصال ودفع إليه أمانا فسار إليه ولم يزل به حتى أحضره إلى القصر

في يوم الاثنين رابع ربيع الآخر، فعفا الحافظ عن الأتراك الذين حضروا معه، واعتقله هو بالقصر.

وفي سابع عشر جمادى الآخرة أضيف لقاضي القضاة هبة الله بن حسن الأنصاري الأوسي، المعروف بابن الأزرق، تدرّيس دار العلم، فمضى إليها، وكان مدرّسها الفقيه أبو الحسن علي بن اسماعيل، فجرى بينهما مفاوضات أدت إلى المصافعة والخصام، فخرج القاضي إلى القصر ماشيا وقد تحرقت ثيابه وسقطت عمامته، فأعلم الحافظ بالخبر، فعظم عليه خروج القاضي في الأسواق على تلك الهيئة فصرفه عن الحكم ورسم عليه وغرمه مائتي دينار وألزمه داره، وولى عوضا عنه أبا الطاهر اسماعيل ابن سلامة الأنصاري، ونعته «بالموفق في الدين» في هذا اليوم بغير تقليد، فأقام إلى غرة المحرم سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فوفر جاري الحكم، وهو أربعون دينارا في كل شهر وخدم بجاري التقدمة على الدعاة وهو ثلاثون دينارا في الخدمتين، فأجيب إلى ذلك واستمر.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر مات بهرام الأرمني بالقصر، وكان الحافظ قد أنزله عنده في دار بالقصر، ولم يمكنه من التصرف وكان يشاوره في تدبير الدولة فلما مات حزن عليه حزنا كثيرا بحيث ظهر على القصر كمده، وأمر بغلق الدواوين وأن لا تفتح ثلاثة أيام، وأحضر بطرك الملكية بمصر وأمره بتجهيزه، فأخرج عند صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج وحوله النصراني يبخرون باللبان والسندروس والعود، وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته، وخرج الحافظ راكبا بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أحضر بغير طيلسان، فما زال الناس سائرين والأقساء يعلنون بقراءة

الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، فنزل الحافظ عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديدا.

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان (بن) إبراهيم بن المسلم المعروف بابن رشا المقدسي في آخر جمادى الآخرة.

سنة ست وثلاثين وخمسة

في ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سقطت صاعقة أحرقت ركن المنارة من الجامع العتيق بمصر.

وفي شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير، فبلغ القمح تسعين درهما الأردب، والدقيق مائة وخمسين الحملة، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، والويبة الشعير سبعة دراهم، والزيت الطيب الرطل بثلاثة دراهم، والجبن كل رطل بدرهمين، والبيض كل مائة بعشرة دراهم، والزيت الحار الرطل بدرهم ونصف، والقلقاس كل رطل بدرهم، والدجاج والفراريج لا يقدر على شيء منها، وكثر الوباء والموت.

وفيها مات أحمد بن مفرج بن أحمد (بن) أبي الخليل الصقلي الشاعر، المعروف بتلميذ ابن سابق كان فاضلا ذكيا يتصرف في فنون شتى، وله رسائل في غاية الحسن وشعر فائق، فمنه، وقد كان الشعراء في أيام الحافظ قد أطنبوا في المديح وتناهوا في القصائد حتى صار الإنشاد يؤدي إلى قصر الوقت الذي جرت العادة باستماع أشعارهم لطول مثلهم بالخدمة، فأمروا لذلك بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار، فقال أحمد ابن مفرج، يخاطب الخليفة الحافظ:

أمرتنا أن نضوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لا بد أن تجري سوابقنا
حتى يبين لها في مدحك الأثر

فأمروا بما كانوا عليه أولا.

سنة سبع وثلاثين وخمسة

فيها عظم الوباء بديار مصر فهلك فيه عالم لا يحصى.

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولا لرجار، ملك صقلية، بسبب
محاربه أهل صقلية، وكان رجار يحب مديح الشعراء ويحزيهم، فذهب
إليه جملة من الشعراء ومدحوه منهم ابن قلاقس وأمر أن يصنف له
تأريخ فصنف له تأريخ كبير.

سنة ثمان وثلاثين وخمسة

فيها خرج محمد بن رافع اللواتي بالبحيرة في طائفة كبيرة من العربان،
فسار إليهم طلائع بن رزيك، والي البحيرة، وحاربهم فكسرهم، وقتل
أميرهم محمد بن رافع.

وفيها غلت الأسعار بمصر.

سنة تسع وثلاثين وخمسة

فيها سير الحافظ الرشيد أبا الحسن أحمد بن الزبير رسولا إلى اليمن
بسجل يقرأ عليهم، فسار في ربيع الأول.

وفيهما خرج أبو الحسين بن المستنصر إلى الأمير أبي المظفر خمارتاش، صاحب الباب الحافظي، وقال له: اجعلني خليفة وأنا أوليك الوزارة، فأعلم الحافظ بذلك فقبض عليه واعتقله.

وفي جمادى الآخرة قدم من دمشق إلى مصر الأمير مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ وإخوته وأولادهم، ونظام الدين أبو الكرام محسن، وزير صاحب دمشق، مغاضبين لصاحب دمشق.

سنة أربعين وخمسة

فيها أعيد نظر الدواوين والأترار والخزائن للقاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى.

سنة إحدى وأربعين وخمسة

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختيار طالبا للوزارة بأرض الصعيد، فندب إليه عسكريا عليه سليمان بن يونس اللواتي، فمضى إليه وحاربه، فانهزم فاتبعه حتى أخذه أسيرا وقتله وصلبه.

ولسبع بقين من جمادى الآخرة قدم إلى مصر صافي الخادم، أحد خدام المتقي من بغداد فارا فأكرمه الحافظ.

وفيهما منع الحافظ من التعرض لصرف شيء من المال الحاضر من الأعمال في جواري المستخدمين وأن يكون مايسيب، منها على البواقبي والفاضل في هذه السنة.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

في ربيع الآخر أعيد نظر الدواوين للقاضي المرتضى أبي عبد الله محمد ابن الحسين الطرابلسي المعروف بالمحنك، وصرف أبو الكرم التنيسي.

وفيهما بعث الحافظ لظهير الدين، صاحب دمشق هدايا وخلعا وتحفا.

وفي ليلة الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة خرج رضوان الوزير من نقب نقبه بالقصر، في الموضع الذي كان معتقلا فيه، وركب وحوله جماعة ممن كان يكاثبه، وسار إلى الجيزة فنزل بها، واستنجد بجماعة كثيرة من طوائف العربان، وسار إلى القاهرة، فخرج إليه عسكر الحافظ فحاربهم عند جامع ابن طولون، فانهزموا منه، ودخل إثرهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأحمر، فغلق الحافظ أبواب القصر في وجهه، فأحضر رضوان أرباب الدواوين وأرباب الدولة وأمر ديوان الجيش بعرض الجند، وأخذ أموالا كانت خارجة عن القصر في الدواوين وفي وظائف العسكر، وقيل أنه سير يطلب من الحافظ المال، فسير إليه عشرين ألف دينار، وبعث الحافظ خلف مقدمي السودان وأمرهم بالهجم على رضوان وقتله، فخرجوا إليه وهاجموه فلما رأهم هم بالركوب فبدره بعض السودان بسيفه، قتله به وقتل معه أخاه، وأخذ السودان رأسها ودخلا بها إلى الحافظ فسكنت الفتنة.

وبعث الحافظ رأس رضوان إلى زوجته، فلما وضعت في حجرها قالت: هكذا تكون الرجال.

وكان رضوان سنيا حسن الاعتقاد، شجاعا شديد البأس، ثابت الجنان، ولد ليلة غدیر خم من سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأول ولاية وليها قوص وإخميم في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

وفي يوم الأحد لعشر بقين من صفر توفي الشيخ الفاضل أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المنعوت بتاج الرئاسة، صاحب الرسائل، أخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج، صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسيني الزيدي، ثم تفرد بالديوان فصار فيه بمفرده، وكان أبوه صيرفيا وجده كاتباً، ومولده بمصر يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وله تصانيف عدة في الأدب والتاريخ والترسل، وله شعر.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

في ثالث صفر توجه العسكر لقتال لواته، وكان قد قام فيهم رجل قدم من الغرب ادعى أنه ابن نزار، فكانت بينهم وقعة على الحمامات انهزم فيها عسكر الحافظ، فسير إليهم عسكراً ثانياً ودس إلى مقدمي لواتة مالا جزيلاً ليقتلوا ابن نزار، فقبلوا المال وقتلوا المذكور وبعثوا برأسه إلى الحافظ، وذلك في صفر، وعادت العساكر في ثاني ربيع الأول.

ولسبع خلون من المحرم صرف عن قضاء القضاة أبو الطاهر اسماعيل ابن سلامة الأنصاري واستقر على الدعوة فقط، واستخدم في القضاء أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن القرشي القدسي.

وفي رجب قطعت أيدي بني الأنصاري وصلبوا على بابي زويلة الكبير والصغير.

وفيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعاً وأربعة أصابع، وبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع (الأعظم) خارج القاهرة، فكان الناس يتوجهون إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر، فلما بلغ الحافظ أن الماء

وصل إلى الباب الجديد أظهر الحزن والإنقطاع، فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن هذا السبب، فأخرج له كتابا وقال: انظر هذا السطر، فقرأه الرجل فإذا فيه «إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال هذا الكتاب الذي نعلم فيه أحوالنا وأحوال الدولة وما يأتي بعدها فاتفق بعد ذلك مرض الحافظ إلى آخر السنة.

سنة أربع وأربعين وخمسة

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيوشية والطائفة السودانية الريحانية، فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها عدة من الطائفتين، وامتنع الناس من المضي للقاهرة والطلوع إلى مصر، وكان التقاؤهم أولا يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى، ثم في يوم السبت رابع جمادى الآخرة، فانهزمت الريحانية إلى الجيزة.

واشتغل الناس بوفاة الخليفة، وكان القصد القيام عليه وإزالته من الخلافة فمات في ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة، ومولده في المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وقيل ثمان وستين، ومدة خلافته من يوم بيعته عند قتل كتيفات ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

ولاقى في أول أيامه شدائد وحكم عليه، فما زال يسوس أمره حتى مسك رضوان الوزير واعتقله ولم يستوزر بعده أحدا، بل كانوا كتابا على سنة الوزراء أرباب العمائم كأبي عبد الله محمد بن الأنصاري، والقاضي الموفق التنيسي، وصنيعة الخلافة أبي الكرم الأخرم النصراني.

وكان حازم الرأي جامعا للأموال لا يجب أن يكون له وزير لما جرى عليه من وزرائه، ولم يل الخلافة أحد من أهل بيته من أبوه غير خليفة

غيره ثم العاضد، وكان عنده سبعة من المنجمين منهم المحقوق وابن الملاح وابن القلعي وابن موسى النصراني.

وفي أيامه عملت الطلبة التي كسرت في أيام السلطان صلاح الدين، وكانت إذا ضرب عليها من به قولنج تنفس عنه الريح.

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل، ويوسف، وأبا المنصور اسماعيل، وتولى الخلافة بعده ولقب بالظافر.

فاستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال ولقبه «بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش» وهو يومئذ من أكابر أمراء الدولة.

وفي رابع شعبان اجتمع بالهنساوية جمع كبير من السودان والمفسدين، فخرج إليهم الوزير ابن مصال وحاربهم فكسرهم.

ففي أثناء ذلك ثار عليه الأمير المظفر أبو الحسن علي بن السلار والي الاسكندرية وعاجله إلى مصر فدخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع شعبان المذكور، ووقف على باب القصر وسير إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء فأعلم بحاله، وكانت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة آلت إلى أن فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة ولقب (بالعادل) فبلغ ذلك ابن مصال فجمع من العربان جمعا صالحا، وقصد ابن السلار ومعه بدر بن رافع، مقدم العربان في تلك البلاد، فندب ابن السلار ربيبه عباس بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس في عسكر فنزل بركة الحبش، وسير ابن مصال طائفة من عسكره مع الأمير الماجد فجد في السير وكبس عسكره عباس فأكثر من القتل والجراح فيهم، فانهمز عباس إلى القاهرة وعاد الأمير الماجد إلى ابن مصال فأجمع رأيه على السير إلى بلاد الصعيد لجمع العربان والأجناد، فتوجه لذلك وأخذ ابن السلار في تجهيز عباس فجهزه في عسكر كثيف خوفا من اجتماع الناس

على ابن مصال، فلحقه عباس على دلاص وكان ممن معه طلائع بن رزيك، وكان مقدما في هذه النوبة، فكانت بينه وبين ابن مصال وقعة انجلت عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع في يوم الأحد تاسع عشر شوال، وعاد عباس بمن معه إلى ابن السلار برأس ابن مصال فطيف بها في القاهرة ومصر، وخلع على ابن السلار في ذلك اليوم.

وكان ابن مصال من برقة وتعاطى أولا البيزرة والصيد هو وأبوه من قبله، فندم في الدولة حتى نال الوزارة فاتفق أن رأته في وزارته امرأة كانت تعرفه في حال فقره، فقالت له: سليم وزرت فقال لها: نعم، فقالت له: والله ماوزرت وبقي أحد، فضحك وأمر لها بصلة.

وفي السادس والعشرين من رمضان أغلق العادل بن السلار (أبواب) القاهرة والقصور، وأمسك صبيان الخاص وقتلهم عن آخرهم، وكانوا جمعا كبيرا.

وصبيان الخاص هم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة، فكان الرجل منهم إذا مات وله أولاد حملوا إلى حضرة الخلافة ويودعوا في أماكن مخصوصة، ويؤخذ في تعليمهم الفروسية ويقال لهؤلاء الأولاد صبيان الخاص، وسبب قتل (ابن) السلار لهم أنه بلغه عنهم أنهم تعاقدوا على أن يهجموا في داره بالليل ويقتلوه، فقبض عليهم وقتل أكثرهم وبعث بمن بقي منهم فركبهم في الثغور.

وفي يوم الجمعة رابع شوال قتل العادل بن السلار أبا الكرم محمد بن معصوم التنيسي، ناظر الدواوين، وذلك أنه كان قبل الوزارة من صبيان الحجر، وكان يعاود الدخول على الموفق في الرسائل ويكلمه بكلام غليظ، فكرهه الموفق لذلك، فاتفق أنه كتب لابن السلار منشورا بإقطاع فدخل به إلى الموفق فتغافل عنه وأهمل أمره، فقال له ابن السلار:

ما تسمع، فقال له الموفق: كلامك ما يدخل في أذني أصلاً، فأخذ ابن السلار منشوره وخرج، وضرب الدهر ضرباته وصار ابن السلار ملكاً فدخل عليه الموفق بن التنيسي وسلم فقال له: ما أظن كلامي يدخل في أذنك، فتلجلج الموفق وقال له: عفو السلطان، فقال: قد استعملت العفو من خروجي من عندك، وأشار لبعض خدمه فأحضر مساراً من حديد عظيم الخلقة، فقال له: والله هذا أعددته لك من ذلك الوقت، وأمر به فجر وضرب المسار في أذنه حتى نفذ من الأخرى، فأمر به فحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسار في خشبة وعلق عليها ميتاً ثم أنزل بعد ذلك.

وفي سابع عشر شوال رمي برأس سعيد السعداء من القصر، وصلب بباب زويلة من ناحية الخرق، وإليه نسب دويرة سعيد السعداء، وهي الآن خانقاه.

وفي رابع عشر صفر قتل تاج الرئاسة بن المأمون.

وفيها مات أبو الحسن علي بن الحسن البيساني، والد القاضي الفاضل بمصر، وكان قاضي عسقلان، والناظر فيها، ومولده ثامن عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسة، وولد أبوه الحسن يوم غدیر خم سنة ستين وأربعمئة، ومات مستهل ربيع آخر سنة إحدى عشرة وخمسة.

سنة خمس وأربعين وخمسة

في رجب غار جمع كبير من الفرنج على الفرما وأحرقوها وأخربوها ونهبوا أهلها.

سنة ست وأربعين وخمسةائة

فيها جهز العادل بن السلار المراكب الحربية بالرجال والعدة فسارت في ربيع الأول إلى يافا، فأسرت عدة من مراكب الإفرنج، وأحرقت ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقا كثيرا من أهل يافا، ثم قصدوا ثغر عكا وفتكوا فيه، وساروا منه إلى صيدا وبيروت وطرابلس فأبلوا بلاء حسنا وظفروا بجماعة من حجاج الأفرنج فقتلوهم عن آخرهم.

وبلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي، ملك الشام، فهم بقصد الفرنج في البر ليكون وهو في البر والأسطول المصري في البحر، فعاقه عن ذلك الشغل بإصلاح دمشق، ولو اتفق مسيره مع الأسطول كان يحصل الغرض من الفرنج.

وكان جملة ما أنفقه العادل بن السلار على هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار، وكان سبب تجهيزه مافعله، الفرنج في مدينة الفرما.

وفيها قطعت جميع الكسوات عن الناس من الأهراء والدواوين وغيرهم.

سنة سبع وأربعين وخمسةائة

فيها صرف العادل بن السلار عن القضاء أبا الفضائل يونس، واستخدم عبد المحسن بن محمد بن مكرم، ثم ولي بعده أبا النجم بدر ابن ثمال بن نصير، وقيل بل الذي ولي أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا الأرسوفي الشافعي.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

في سادس المحرم قتل أبو الحسن علي بن السلار، سلطان مصر، قتله ربيبه عباس، وذلك أن العادة كانت جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر مصر لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد نزلوا عليها وحاصروها في السنة الماضية، فلما قدم البدل في هذه السنة، وكانت النوبة لعباس، خرج معه من الأمراء، ملهم، والضرغام، وأسامة بن منقذ وغيره، وكان لأسامة بعباس خصوصية.

فلما برزوا من بلبس تذاكر عباس وأسامة مصر وطيبها وماهم خارجون إليه من شدة السفر ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك وأخذ يلوم العادل ويعتب عليه وكونه جرده، فقال له أسامة: لو أردت كنت سلطان مصر، فقال: كيف الحيلة؟ فقال: هذا ولدك بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فخاطبه على لسان ولدك أن تكون أنت السلطان موضع عمك فإنه يختارك ويكره عمك، فإن أجابك فاقتل عمك.

فأحضر عباس ابنه نصر وأسر إليه ماتقرر مع أسامة وسيره إلى مصر، فاتفق أنه وجد عند دخوله غفلة من العادل أمكنه فيها الاجتماع بالظافر، فأعلمه الحال فوافق على ذلك، ومضى نصر إلى دار جدته، زوجة العادل، وأعلم العادل أن أباه سيره من بلبس شفقة عليه من السفر.

فلما أصبح العادل مضى إلى مصر بكرة النهار وجهاز المراكب الحربية وأنفق في رجالها وعرضها لتلحق عباسا وأقام نهاره ثم عاد آخر النهار إلى القاهرة وقد لحقته شدة من التعب، فنام على فراشه، فقام إليه نصر بن عباس على حين غفلة واحتز رأسه ومضى بها إلى الظافر بالقصر.

فسرح الطائر من فوره إلى بلبس، فقام عباس لوقته ودخل إلى القاهرة

صبيحة نهار الأحد ثاني عشر المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد نفرُوا واستوحشوا مما وقع، فأخذ في تسكينهم فلم يطمئِنوا إليه وخرجوا على وجههم إلى دمشق.

وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصفاً، ولما حملت رأسه إلى القصر أشرف الظافر من باب الذهب، ورفعت الرأس ليراها الناس، ثم أمر فحملت إلى بيت المال فوضعت في خزانة الرؤوس، فأودعت بها.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

في ليلة الخميس سلخ محرم خرج الظافر متنكراً ومعه خادمان إلى دار نصر بن عباس، وهي الدار المعروفة بدار جبر بن القاسم، ثم عرفت بدار المأمون بن البطائحي، وهي الآن المدرسة السيوفية فاتفق أن نصرا قتل الظافر وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل معه أحد الخادمين وهرب الآخر.

وسبب ذلك أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن لعباس أن يقتل عمه العادل، وهموا بقتله، فبلغه ذلك فأخذ يقول لعباس: كيف تصبر على ماتقول الناس في ولدك، واتهامهم له بأن الخليفة يفعل به مايفعل مع النساء؟ فعظم ذلك على عباس، واتفق أن الظافر أنعم على نصر بقلوب، فحضر نصر إلى أبيه وأعلمه بذلك، فقال أسامة بن منقذ ماهي بمهرك غالية، فقال عباس لابن منقذ: كيف تكون الخيلة في هذا الأمر؟ فقال له: الخليفة في كل وقت يأتي ولدك في هذه الدار خفية، فإذا أتاه مرة يقتله، فأحضر عباس ابنه وأمره بذلك، فلما أتاه الخليفة في ليلة الخميس قتله كما ذكرنا.

وركب يوم الخميس عباس الوزير في أوله إلى القصر على العادة، وقال

لبعض الخدم: أعلم مولانا لنجلس للاجتماع معه، فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من الاجتماع بالخليفة، فقبل إنه خرج البارحة ولم يعد، وحضر في أثناء القضية الخادم الذي كان معه وأعلمهم الحال، وشدد عباس في طلب الخليفة، وقام بنفسه ودخل القاعات ومعه كبار الخدم، وقال لهم: لا بد من مولانا الخليفة، فقبل له حينئذ أنت أعلم بحاله فأمر بإحضار أخويه: أبي الأمانة جبريل، ويوسف، وقال لهما: أنتما قتلتما الخليفة، فأنكرا ذلك وحلفا عليه، وهو يتماذى عليهم، فأحضر القاضي وداعي الدعاة أبا الظاهر بن اسماعيل بن عبد الغفار، والفقيه مجلي وعرفهم أنه صح عنده أن أخوة الظافر قتلوه، فأفتى الجماعة بقتلهم، فأمر حينئذ بهما فقتلا بين يديه، وقد أحضر عيسى بن الظافر، وهو طفل صغير، فبايعه بالخلافة وأخرجه للناس ونعته «بالفائز» فحصل له رجة مما رأى من قتل عميه، فكان يصرع كل قليل.

وكان الظافر من أحسن خلق الله وجهاً، ولد يوم الأحد نصف ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وقتل ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين، فكانت مدة ملكه أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وعمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً.

وظن عباس أن الأمر استقام له، فكان الأمر بخلاف ذلك، وكثرت نياحة أهل القصر على الظافر وأخذوا في إعمال الحيلة على عباس، وكانت الأمراء والسودان قد نفروا عنه لإقدامه على القتل، فاختلفت الكلمة عليه وهاجت الفتنة بالقاهرة وتفرق العسكر فرقا ولبسوا السلاح، فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين عاشر ربيع الأول وحاربهم فكسرهم وقتل منهم جماعة، وبعثت عمه الفائز إلى طلائع بن رزيك، وهو على الأعمال الأسيوطية، بالكتب في طيها شعور النساء تستصرخ به على

عباس، فجمع العربان والأجناد ومقطعي البلاد، وحشد وسار من منية الخصيب يوم السبت لثمان خلون من ربيع الأول.

وبلغ عباس فجهز إليه عسكريا فسار من القاهرة عاشر ربيع الأول فوصل إطفيح بكرة الثلاثاء خامس عشره، وسارت عربان إطفيح إلى ابن رزيك فوافوه بأبويط، وسار فنزل دهشور من الجيزة، فوصلته الأخبار بخروج عباس من القاهرة فسار ونزل قبالة المقس عشية نهاره.

وخرج الناس للقاءه فبات في عشاري، وأصبح فأقام به إلى يوم الأربعاء تاسع عشره، فركب ليريد القصر، فخرج إليه الأمراء، فمنهم من قابله ومنهم من التحق به، وبعد ساعة انجلى الأمر عن فرار عباس وأسامة بن منقذ بما خف من المال والتحف إلى جهة أيلة ليصير إلى الشام، ونهب الناس دورهم.

ودخل طلائع القاهرة وشقها بعساكره وهو لابس ثيابا سوداء، وأعلامه وبنوده سود، وشعور نساء القصر على الرماح حزنا على الظافر، فكان ذلك من عجيب التفاؤل فإن الدولة انتقلت عما قليل إلى بني العباس، ودخلت أعلامهم السود إلى القاهرة.

ونزل طلائع دار المأمون التي كان يسكنها عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل فأعلمهم مكانه فأخرجه وغسله وكفنه وعمله في تابوت مغشى، وحمله الأستاذون والأمراء، ومشى طلائع والناس حتى وصلوا به إلى القصر فصلى عليه ابنه الفائز، ودفن في تربة القصر.

وجلس الفائز بقية النهار، وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد، وعلى ولده وإخوته وحاشيته، وقرىء سجله بالوزارة ونعت

«بالمملك الصالح» وعلى طرة السجل بخط الفائز مانصه: «لوزيرنا السيد الأجل المملك الصالح» وتتمة النعوت والدعاء، من «جلالة القدر، وعظم الأمر وفخامة الشأن وعلو المكان، واستحباب التفضيل، واستحقاق غايات المن الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه دون الخلائق إلى القيام بحق مشايعتنا وطاعتنا، مابعثنا على التبرع له ببذل كل مصون، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون»، والذي تضمنه هذا السجل من تقريره وأوصافه، «فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه، ولذلك شرفناه بجميع التدبير والإنالة، ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بها جعلنا له من الكفالة، والله تعالى يعضد به دولتنا، ويمحو به حوزتنا، ويمده بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غايات الاستمرار والتأييد إن شاء الله تعالى»، وهو سجل كبير جدا من إنشاء الموفق أبي الحجاج يوسف بن علي بن الخلال.

ودخل الشعراء على الصالح فهنوه بالوزارة وذكروا هذه الحالة والواقعة، وكانوا جماعة منهم: أبو علي عبد الرحيم بن علي البيساني، والقاضي الأجل الرشيد أحمد بن الزبير، والقاضي الجليس عبد العزيز بن الحسين بن الجباب، والقاضي السعيد جلال المملك أبو الحسن علي بن الأشرف بن كاسيويه وأبو محمد يحيى بن خير الشاعر المسمى ديك الكرم.

وفيهما أرسلت عمه الظافر للفرنج بعسقلان رسلا على البريد تعلمهم بالحال، وتبذل لهم الأموال في الخروج على عباس وأخذ مامعه، فخرجوا إليه وحاربوه فخذله أصحابه ونجوا مع أسامة ابن منقذ إلى الشام، فوقع في قبضة الفرنج فنهبوا ماكان معه وحملوه إلى عسقلان.

وفيهما صرف عن قضاء القضاة أبو المعالي مجلي بن جميع الفقيه

الشافعي، واستقر مكانه القاضي المفضل أبو القاسم هبة الله عبد الله بن كامل بن عبد الكريم في العشر الأخير من شعبان.

وفي يوم الأحد ثالث عشر ربيع الأول قبض الصالح على جماعة من الأمراء وقتلهم، وعلى عدة من أرباب العمام منهم الخطير أبو الحسن علي بن سليم بن البواب، ناظر دواوين مصر، وكان عارفا بالهندسة والمنطق مليح الشعر حسن الترسيل.

وفيهما مات القاضي المرتضى أبو عبد الله محمد بن الحسن الأطرابلسي المعروف بالمحنك، وكان ممن ولي نظر الدواوين والخزائن وغيرها، وله «تاريخ خلفاء مصر» قطع فيه على الحافظ.

سنة خمسين وخمسمائة

فيها مضى الأسطول لميناء صور فملكها وقتل من فيها وأحرقها، وعاد وقد ظفر بمراكب حجاج النصاري وغيرهم وبعده أسرى وغنائم كثيرة.

وفيهما خرج على الصالح الأمير تميم، والي إخميم وأسيوط، وجمع جمعا موفورا، فأرسل إليه عسكريا فقتل في يوم الأربعاء سابع عشر رجب.

وفيهما قدم إلى مصر الفقيه عمارة بن علي بن زيدان الحكمي الشاعر، رسولا من أمير الحرمين، فمدح الفائز والصالح، ثم عاد بجواب رسالته في شوال، وقدم إلى مصر فاستقر بها وصار من جملة خدام الدولة.

وفيهما مات بمصر الفقيه أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا القرشي المخزومي الأرسوفي الشافعي، وله مصنفات منها كتابه الكبير المسمى «بالذخائر» في الفقه.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها كان الغلاء بمصر فلقق الناس منه شدة.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج والصالح، فشرع في النفقة على العساكر وعربان البلاد للغارة على بلاد الفرنج، فأول سرية سيرها يوم السبت سابع عشرين جمادى الأولى فوصلت إلى غزة ونهبت أطرافها، وسارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بغنائم كثيرة إلى مصر في رابع عشر جمادى الآخرة، ثم سير عسكرا آخر فمضى إلى الشريعة فأبلى بلاء حسنا وعاد مؤيدا، وندب مراكب في البحر فسارت إلى بيروت وغيرها فأوقعت بمراكب الفرنج فأسرت منهم وغنمت، وسير عسكرا إلى بلاد الشوبك والطفيل فعاثوا في تلك البلاد وغاروا، ورجعوا بالغنائم في رجب ومعهم عدة أسرى، ثم سير الأسطول فمضى إلى عكا فأسروا من أهله نحو سبعمائة نفس بعد حروب وعاد في رمضان وجهاز سرية إلى بلاد الفرنج فغارت وعادت بغنائم في رمضان، وندب سرية وعادوا في سادس ذي الحجة.

وفيها قدم رسول محمود بن زنكي صاحب الشام.

وفيها كسر مركب فيه حجاج النصارى بثغر الاسكندرية، فقبض عليهم نائب الثغر وبعث بهم إلى القاهرة.

وفي سلخ ذي الحجة قبض الصالح على الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم، بسبب أنه كاتب أخت الظافر، وقصد القيام على الصالح، وكان واليا على أعمال قوص وهو بالقاهرة وبقي حتى مات بالحبس في رجب سنة ثلاث وخمسين.

وفيها أحضر إلى الصالح رجل كامل الأعضاء قويها سريع الحركة ليس بضئيل الصوت، طوله من رأسه إلى قدمه أربعة أشر وله أولاد.

سنة ثلاث وخمسين وخمسة

في محرم جهز الصالح عسكريا عدته أربعة آلاف وعليه شمس الخلافة أبو الأشبال ضرغام وجماعة من الأمراء للغارة على بلاد الفرنج، فساروا في رابع صفر إلى تل العجول فكانت بينهم وبين الفرنج وقعة في نصف صفر انهزم فيها الفرنج هزيمة قبيحة، وسير سرية واقعت الفرنج على العريش في شعبان فكسرتهم وغنمت منهم خيولا وأموالا.

وفيها قدم رسول محمود بن زنكي، ووصل رسول الفرنج يطلب الصلح، ورسول من صاحب قسطنطينية يطلب مراكب نجدة له على صاحب صقلية.

وفيها سارت سرية من مصر إلى بيت جبرين فغنمت وعادت سالمة بالغنائم.

وسار الأسطول يوم الجمعة ثالث عشرين ربيع الآخر فوصل إلى تنيس في ثامن شعبان، ومنه سار إلى بلاد الفرنج.

وفي سادس عشر ربيع الآخر ورد أسطول الاسكندرية وقد امتلأت أيديهم بالغنائم.

وفي ربيع الآخر سار عسكري إلى وادي موسى، فحاصر حصن الوعيرة ثمانية أيام وعاد بعد ما توجه إلى الشوبك وغار عليها وترك هناك أميرين على الحصار.

وفي تاسع جمادى الأولى سار عسكر إلى بيت المقدس فعات وخرب وعاد بغنائم، وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية انكسر فيها الفرنج فشرع الصالح في النفقة على العساكر، فكانت جملة ما أنفق في مدة إلى عاشر شعبان في هذه السنة خاصة مائة ألف دينار.

فسار في خامس شعبان خمس شواني فدوخت ساحل الشام وظفرت بمراكب للفرنج وعادت بعدة غنائم وأسرى في ثاني عشرين رمضان.

وورد الخبر بحركة ملك العريش إلى مصر للغارة على أطرافها، فجهز الصالح عسكرا فعاد ولم يأت مصر.

وفيها مات بمصر القاضي المفضل كافي الكفاة أبو الفتح محمود ابن القاضي الموفق اسماعيل بن حميد الديماطي المعروف بابن قادوس في سابع المحرم، فحضر الصالح من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه ومشى في جنازته إلى تربته، عند مسجد الأقدام، وكان من أمثال المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكهم وله «ديوان شعر».

وفيها عاد رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار، وعينا سبعون ألف دينار توسعة له على الجهاد، وندب مع الهدية أميرا من أمرائه، وكتب الصالح كتابا على يده وضمنه قصائد يجرسه فيها على قتال الفرنج، فوصلت الهدية في حادي عشر شهر رمضان.

ومضت في هذه السنة عدة عساكر في البر والبحر وعادوا بكثير من الأسرى منهم أخو القمص صاحب جزيرة قبرص، فأكرمه الصالح وسيره إلى ملك القسطنطينية فامتلت الأيدي بالغنائم، وقال الصالح في ذلك عدة قصائد:

«والله أعلم»

تم

وقد وجدنا هكذا مكتوبا في آخر النسخة: آخر المتقى